العَجَكُو

مرة أخرى

العَجَكُو مرة أخرى
مجموعة قصصية
عمر الصايم

عمر الصايم

العَجَكُو مَـرَّةً أُخْـــرَى

مَجْمُوعَة قِصَص

رقم الإيداع (2012/450)

المُتَنَحِي

مَنْ أوقعني في هذه الحفرة؟ وقد ولدتْنِي أُمِّي مُتَنَحِياً، وقالت القابلة أنّ حَدَبَتِي بائنة، وعيناي جاحظتان مُنْذُ البدء، حكتْ لِي أُمِّي أنني حَبَوْتُ على أربعٍ كالكلبِ، دائماً أَنْحُو إلى الظلال القصية، لا أُلاعبُ أقراني إلاّ لِمَامَاً، فإذا سَلَبَ أحدُهم لَعْبَتِي نأيْتُ عنه، أَرقبُ المشهدَ غير آسفٍ.

أهذه الحَدَبَةُ البائنةُ خِتْم المُتَنَحِي؟ أَوَّل ما دَخَلْتُ الجامعة أبديْتُ دهشتي مِنْ هؤلاء الذين يَلْعَنُون السُّلْطَة تحت شمسِ الظهيرة، يقرؤون بصوتٍ صادِحٍ:

"اسمعنا يا ليل السجون

نحن بنحب شاي الصباح مع الوليدات

والزوجة والأم الحَنُون

بنحب كدا ... ونعشق كدا"

قُلْتُ هؤلاءِ هُمْ نَاسِي، وسُرعان ما أفِل الاندهاشُ، وانتحيْتُ عنهم. صِرْتُ ألعنُ السياسةَ بِلَغَطِهَا وغِلْظَة أهلِهَا. كنْتُ قد أَفِدْتُ مِنْ طفولتي المُتَوَحِدَة، جَرَّاء انصرافِي عَنِ اللعبِ حَالَ تَعَرُّضِي للاستفزاز فِي تكوين مَلَكَةٍ تَخَيُّلِية، وقُدرة لا بأس بها مِنْ التعبير في مرحلة الدراسة الابتدائية وما تلاها، لا يعرفني المعلمون إلاّ بعد أول حصة تعبير، يأتون بمواضيعِهِمْ المتكررة. الخريف، المولد،

والعصفور السجين، فأكتبُ لهم ما لذَّ وغابَ مِنْ الجُمَل والمعاني، يقولون أَنَّنِي فَلْتَه فاتنحى بعيداً عن إطرائهم.

هل جحوظ عينيّ إشارة ما؟ وإلاّ كيف يفهمُ الآخرون أَنَّنِي لَنْ أُكْمِلَ معهم. بكل اعتداد تَحَلَّقَ حولي أُدباء الدفعة، وأربابُ القلمِ، جعلوني شيخاً، ما يحتاجونه ظهراً مُحْدَوْدِباً، كلمات باردة، ونظرات شاردة. ها قد وجدوا ضالتهم، أفسحوا لِي صدر المسيرة، أسموني الأب الروحي، والفيلسوف القانط، بِدَفعٍ مِنْ أوهامهم عنّي كتبتُ كذا قصة ورواية كبيضة الديك، أكملتُ القصص في جلسات قصيرة، أمّا الرواية فسئمتُ طولها وتَنَحَّيْتُ عنها، قلتُ لهم

إِنِّي فيكم كأبي العلاء المعري في زمانه، سأكونُ رهين المحبسين، ما مِنْ زَوْجَةٍ أو أبناء قال لي صديقي المُتَمَاهِي

سنكتبُ على قَبْرِكَ بَيْتَ أَبِي العلاء

هذا ما جناه عليّ أبي **** وما جَنَيْتُ على أحد

قلتُ – ربما سأكتبُ على قبرك الآية (.. فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة)

ضَحِكَ المُتَمَاهِي، وضحكنا، ولكنهم أحسوا كغيرهم أَنَّنِي سأفارقُ مشروعهم الإبداعي عند منحنى غير ذي صلة؛ وقد فعلتُ تدريجياً، بعد تَخَرُّجِي بمخارج متعسرة، طرقتُ أبواب الوظائف الآسنة. هنا سأُغرِق موهبتي الفائقة في الروغان، حصلْتُ على إحداهن، كانت مكتبية قحَّة، أوراق وملفات، حيثُ يكون نُفوقي مُغَبَّراً ومُبَرَّرَاً.

أَتُرَانِي كنْتُ مُحبَطَاً حين تزوجْتُ؟ تركتُ الوظيفةَ الباردةَ، والتحقتُ بتعليم الأساس، آملاً أنْ أصيرَ مديراً في فترة وجيزة وهذا ما حدث، ولكن قبل ذاك بفترة أوقعتْنِي مُعَلِّمَة التاريخ في مصيدتها. سمراء وبدينة لا تتيح مجالاً لمتنحي، هذه امرأتي، فأنا أحتاجُ لأُنْثَى سمراء داهِسَة، ثقيلة الوزن. لم يمضِ أسبوع من زواجي إلا وأنا في ضَجَرٍ وقَرَفٍ. أكره اقتسام الفراش، وهَدْأَة الليل. حاولْتُ أنْ أتنحنى بعيداً عند أطراف الفراش، ولكنها كانت كثيرة بقدر يُمَكِّنُهَا مِنْ سَحْبِي لامتطائها متى شاءت. غابتْ عني بطولة التَّنَحِي وصرتُ مُكْرَهَاً؛ استمرتْ عمليةُ السَّحْبِ والتَّنَحِي بيننا سِجَالاً لبضع أشهر، ثم أعلنتْ أنها حامل. آه حامل! تَمَنَّيْتُ أَنْ تحملَنِي قَدَمَاي إلى حامِلَةِ طائراتٍ في عرض المحيطات، هناك حيثُ لا أسمعُ أنني تَنَحَّيْتُ عن مشروع أبي العلاء كلياً. بعد أن أنجبتْ توأمها الأول زادتْ حَدَبَتِي سنتمتراً، وقفزتْ عيناي للخارج باحثة عَنْ مَنَاص بعيد المنال. وظَلَلْتُ مَعَ كُلِّ إنجابة أَتَقَوَّسُ، وأَجحَظُ، تَكَهَنْتُ أنّ عينّي ستلتقيان بأخمص قدميّ ما لَمْ تَحْدُثْ مُعْجِزَة تَعَطَّل ماكينة الولادة.

عادني صديقي المتماهي فِي حُفْرَتِي، زاهياً فِي حُلَلِ العذوبية، حَدَجَتْه أُنْثَى التَّارِيخ بنظرة، تَخَطَّاها ببرود، لَوْ أنَّها أَلْقتْ بتلك النَّظرة فِي وَجْهِي لارتجفْتُ وأربكتْ حلقومي، يا لجسارة العُذَّاب!

سَأَلَنِي – أَلَمْ تُعَاود الكِتَابة يا صديقي؟

وهل أجيبه؟ أَلَمْ يبصر البلدوزر يَسْحَلَنِي؟ كأَنَّنِي لَمْ أَتَنَحَ عنهم ذاك اليوم إلى عُشٍّ مِنْ زُغْبِ البطون، نَظَرْتُ إليه ببرود، أَخذتُ رَشْفَة رعناء من كوب الشاي، أشرتُ إليه بأنْ يرشفَ، ومنحْتُه قطعةً باردةً مِنْ ابتسامتي القديمة، وتَنَحَيْتُ لأجلسَ حيثُ أشاء مِنْ حُفْرَتِي.

مساران ثالثهما الجنون

ثلاثةٌ ملأنا الدنيا، وحبيباتُنَا باسِطَاتٌ أحضانهن بالنشيد، عالمنا أرخبيل يَحُفُّهُ النيلُ، وشارعُ الأسفلت. سَنُغّير الوطن، ونُعيد ترتيب الحياة ، ماذا لو تَأَبَّطتْ الحبيبةُ هذه الزِّرَاع المُعَذَّبَة عند شارع النيل؛ وعبرنا سوياً نادي الزوارق والعمارة الكويتية؟ أَلَن تُحِسّ هذه الحشود الجافة بمعنى الحياة؟ لن ترضى عَنَّا السُّلْطَةُ ولا السابلةُ، ورُبَّمَا يدهسُنا راكبو السَّيارات ذات الزجاج المظلل.

اتفقنا أنَّ حزبنا الطليعي سيكون رسول الحياة، وبارقة الأمل لهذا الشعب، أو ما تبقى منه، عَرَّفْتُ هشام بنفسي.

– أمين عبد الباري ، مِنْ أولاد سنجة، طالب آداب.

– هشام المبارك . اقتصاد.

سألني عن كلمة السر، فلفظتُها له، أَتَمَّهَا قاضِماً الأَحْرُف، الآن صارت هذه الكلمة لا تُهِمني في شئ، ولن أموت من أجلها. هشام بنحولِهِ، وهدوء طريقته في الكلام استلبَنِي فِي أسبوع واحد، ابتلعَ شخصيتي وتقيَّأَ نُسْخَتِي منه، أعجبتني طريقته فِي شَبْكِ أصابع يديه، ورفع الإبهامين للإيحاء بأهمية ما يقول، بالرغم مِنْ أَنَّه لا ينظرُ لمحدثهِ إلاَّ خَطْفَاً.

فاجأني ذات قَعْدَة عند اشتراكية بائعة العرقي بخروجه عن وقارهِ، غنّى بانحلال تام:

يا ما قضيت أيام.

أبني الأماني عليك **** واترجم الآلام

يا حبي ما أقساك **** حيّرت قلبي معاك.

لكن إنت هدمت أملى آه ...آه.

مع المقطع الأخير يتمايل بسفاهة تليق بنحوله، لا شيء أجمل مِنْ أَنْ يرقصَ زعيمُك الأثير. خلال شهر كنتُ مُسْتَعِدّاً لافتداء زعيمي بروحي؛ أَتَقَدَّمُهُ في المظاهرات، وأدافع عنه بصدري. تأكدتُ مِنْ أَنَّه سَبَرَ أغواري تَمَامَاً، حين قَدَّمَنِي لِسَمِير قائلاً:

– رفيقنا البرلوم أمين عبد الباري: بروفيسور مستقبلي بقسم الفلسفة.

تَمَكَّنَ هشام مَنْ الغَوْصِ بعيداً في أعماقي، كَمَا لَوْ أَنَّه يصنع مخيلتي. لازمني الشَّغَفُ بالفلسفةِ مصادفة؛ فَأَبِي مُجَرَّد مُزَارِع جُلّ فلسفته في جَوْدَة بذور الدُّخن والنِّبِش واللوبيا. ولو أَنِّي صَحِبْتُهُ للحواشه، وعاونته في حَرْثِ الأرض، فسيكون أسعد بي مِنْ مُعَاقَرَة كُتُبِي البكماء، سألني ذات تجلياتٍ.

– يا ولدي كُتُبَك دِي صمرتا شنو ؟ فايدتا في شنو؟

أبي يسأل عن الثمار المُجْنَاة ، أشحتُ عنه وقد أدركتُ بعض براجماتيته حين أفلتَ سمير يده عني، ونظرتُ في عينيه لم أر غير ثعلب ماكر، يفتقر لقوة هشام

الاستحواذية، ولكنه إذا تحدث جعل كل فكرة تبدو منطقية، وهُنا سر قدرته الفريدة على إغواء الحسناوات، فكان يبدلهن كيفما شاء له، ويأتي في الغرفة، كَسِيرِ القلب ، مُدَّعِياً أنه الضحية، تلك الأيام أَعِدْتُ قراءَة الأمير لميكافيللي لأتمكن من فهم صديقي الجديد، وبحسب الكتاب ليس فيه من صفات الأسد شيئاً، إنَّه ثعلب حلو اللسان، لذيذ الرفقة. فسَّرتُ ذلك بأنه يدرس البيطرة ، دون أن أجد الرابط بين البيطرة والثعلبة، أراه في جلسات الأنس ساهماً، مُدَّعِياً أَنَّه مُعَذَّبٌ مهمومٌ، فإذا انفتح حوار جانبي نهض وضاجع الحوار بلسانه ويديه. يستطيعُ أَنْ يرى الفتاة مِنْ الخارج فيخبرنا إذا ما كانت حائض أم لا، ويحدد مستوي الخفاض من مشيتها. يجزم بأن النظام سيسقط خلال ثلاثة أشهر، فإذا انقضتْ ولم يحدثْ؛ واجَهَهُ الطُّلَابُ بمقولته راوغَ وأَعادَ تجديدَ الثلاثة أشهر بسته أو خمسة، دون أنْ تَهْتَزَّ مصداقيته في نظرهم.

لم يحدثْ أَنْ جَمَعنا معتقلٌ واحدٌ، سلطات الأَمْن تصطادنا فُرَادَي، كُنَّا نَزْعُمُ أَنَّها شطارة، وتكتيك منا، الآن بعد أَنْ عَقِلتُ أدركتُ أَنَّها مقصودة حتى لا نَعْرِف مَنْ الخائن، حينما أُعْتِقَل هشام تحدثْتُ – أنا– أمام الطلاب، سُقْتُ الوعيدَ والنذير للفَعَلَةِ، وحينما أُعتقلتُ تَحَدَّثَ سمير، وهكذا ظللنا نتناوب في المنبر حتى أصابني الجنونُ، أو ما يُسَمِّيه الراسخون في العقل هروباً.

بِتَخَرُّج هشام وسمير، أصبحتُ الزعيم الأوحد لطلابِ حِزْبِنَا الطليعي.

تقاذفتْنِي أحداثٌ جسامٌ، مَقْتَلَةُ الطُّلاب في العيلفون أثناء عبورهم للنهر، خصصة

الجامعة ..... و..... و.... فعلتُ ما أستطيعُ، تَرَكْتُ صديقيّ يواجهان واقعهما المحبط في الخارج، كانا يزوراني خلسة في غرفتي، يبدو عليهما الإنهاك والتحفز للخروج عن دائرتي، لم أشتم رائحة الخيانة وهي تفوح حولي،إنشغلتُ برائحة جواربهما وهي تعطن الغرفة، وقلتُ يا لهما من مسكينين! أتراني أواجه ذات المصير بعد عام. وأنا أعالج هلوسات الملاريا وحريقها، جاءني هشام متلبداً بالقنوط حدستُ أنه حدد مساره، قال لي.

– خلاس أنا حا أهاجر، سئمْتُ الوضع تماماً.

كُنْتُ أعرفُ أَنَّه المَسَار .قُلْتُ

– ومشروعنا؟ تغيير الحياة بالوطن دا؟

أَضْرَبَ عَنْ إجابتي واستأنفَ

– جَهَّزْت كَيس قوي ومِن القاهرة للعالم الأوَّل.

أخذ قلماً وصاغ بياناً باسم جماعة سلفية، زعم أَنَّها هددت بقتل هشام المبارك وآخرين، أطبقَ البيان ونام تاركاً لي وَحَل التفكير، فيما بعد ذاك قرأْتُ ذات البيان على الانترنت، فيما غَادَرَ صديقي وانتهي به المطاف فِي استراليا.

سمير الأكثر وضوحاً والأقل تردداً؛ يمكنه تبرير كل شيء بحزلقة اللغة وتدبيج الحجج، حمل شهادته، والتحق بالشرطة ملازم أول ، قيل للعناية بالكلاب البوليسية، المستوردة من جنوب أفريقيا، ولكنني أجزم أنني لمحته مرة يقود حملة ضد بائعات الخمور البلدية.

اجتهدْتُ لأنسي ذكرهما، حتى حصلْتُ على الدرجة التي تؤهلني لأكونَ مُحَاضِرَاً بقسم الفلسفة، تلك الدرجة التي لا تكفي هُنا لشغل وظيفة مغمورة، ينقصني التزلف لرئيس القسم، الهُتاف المؤيد للسلطة، وإلغاء عقلي تماماً. اختارتِ الجامعةُ شخصاً آخراً، قِيلَ أَنَّه ثانِي الدفعة؛ أَعترفُ أَنَّنِي صُعِقْتُ إذْ رأيْتُ أحلامي تنهارُ؛ جاءَنِي سؤالُ أَبِي – يا ولدي كتبك دي صمرتا شنو؟ فايدتا في شنو.

سلكْتُ المسار الثالث، أَمْ أسلكتْنِي الحياة؟ لستُ أدري! يكفيني أَنْ تَتَهدلَ سفةُ التُمْبَاك عن فمي، أُعَلِّقُ مِسْبَحَة اللالوب على صدري، يملأُ الهواءُ جِلْبَابِي المُرَقَّع، لا أبناء لي ولا زوجة أو حبيبة. فِي المساء أتسكع باحثاً عن نُدَمَاءِ الكَرَاسِي تَحْتَ شَجَرِ النيِّم، استجدي جُرعاتِي المسكرة. لا علاقة لي بالفيس بوك حيثُ هشام ببدلتِهِ الأنيقة يَكْتُبُ عن النظام الآيل للسقوط، وأقصى ما أتمناه ألا تحمل (الطَّارَةُ) صديقي ذي الكلاب البوليسية إلى حيثُ أرشفُ دِنَاني جالساً على بمبر مهترئ . سأكونُ في مساري هذا، مجنوناً أو هارباً أو ما شئتم مِنْ الأوصاف، وكونوا حيث أنتم؟.

رسالة إلى نورا

أهذه صورتك؟ لا تمنحُ البروفايل سوى مزيداً مِنْ البؤسِ. تُغَيِّب صورتك الحقيقية مِنْ الذَّاكِرةِ، أين ذاك البريق في عينيك؟! كيف يا ذات النونات امتلأتْ أشداقُك شَحْمَاً واختفتْ وجنتيك، يا كم أَرِقْتُ زهوي عند قدميك! أنا لا أعاتبُكِ يا نورا، كيف وقد انصرمت الأعوام على حُبِّنَا؟! خمسة عشر عاماً، خاطتْ فمي ومسام جلدي، أوسعتْني تباريحاً، وأغرقتْني بكاء. سأحكي لكِ عَمَّا أراه الآن؛ فأنت عاجزةٌ عن شَحْن أوردتي بالشبق، عاجزة عن إهدار كرامتي بنظرة من عينيك، سَأَمُدُّ ساقي مِنْ هُنَا إلى السماء، وأَمُصُّ قهوتي كما تعلمين عن انديا‌ح مَصَّاتِي، قلتُ إِنَّنِي لن أَغْرَقَ في مفازة مراوغاتك؛ إذن سَأُفَسِّر لك ما حدث.

كنتُ وفياً لصداقتي بتجاني الذي تسمينه آنذاك حبيباً، التقينا في همومٍ مشتركةٍ، عَرَّفَنِي بك، امتدحني ببروده المقتضب. صرنا نلتقي كالعادة؛ وأنت تبسمين لي ابتسامة ملئها الحَفْزِ والإغواء. أعرف أنه زكي أيضاً، وهذه تأكدتُ منها حين غادر محرقتك بلطفٍ. تحكين لي كل يوم عن مشاكلك الهامشية معه، تستفتينني في صغائر الشجارات، وأنا يا مصدق! أقدم لك الاستشارات. ثم اكتشفْتُ تدريجياً أَنَّ في عينيك لغة خفية، شيفرة تسوقني إليها مُكَبَّلاً، نظراتُك نحو تجاني خاوية من قِوَى الجذب السرية. أحكمتِ نسج الفخ، وأمعنتِ في الغواية، كل يوم أسقط.. وأسقط.. ونظرات عينيك تُطْبِقَان على قلبي؛ حتى جاء

يوم البوح العظيم، وأنتِ تُلَوِّحين لِي بِمُؤَخَّرَتِكِ على دَرَجِ المكتبة، تُرَفْرِفُ طرحتُكِ كعَلَمِ الحرية، ثم تتكئين كَمَلِكَةٍ تَنْظُرُ إِلى شَعْبِهَا الجائع، فِي خَوْفٍ وجوعٍ، قُلْتُ لكِ

– أحبك .. أحبك يا نورا .

ألقمتِنِي خَجَلاً، وقُلتِ

– تجاني.. تجاني.. ووب يا مهيد!.

لو كان الحُبُّ جَبَلاً فِي تلك اللحظة لَوَزَّعْتُه عَلى المارةِ، لأعطيْتُ سُعَاةَ الجَامِعَةِ وخفرائها ما يَسُدُّ شَبَقَ زوجاتِهم المُسِنَّات. وخَزَنِي لَفْظُ تجاني، صديقي البارد اللدود. فَرِحْتُ بِأَنَّكَ مَعِي، أمسكتُ بيديك، كانتا غير مُتَعَرِّقَتَيْن مثلما قرأتُ عن الحب، قلتُ أنك يوماً ما ستتعرَّقين، وقد فعلتِ مشكورة، هبطْنا سُلَّمَ المكتبةِ، وتجاني في الأسفل عارفٌ بما حَدَثَ، مُتَكَهِّنٌ بما سيحدثُ.

أجلستُه في الكافتيريا نرتشفُ الشاي السَّادة، وانسحبتِ– أَنْتِ– فِي حياءٍ، تاركةً شابين يصطرعان على صَحْنِكِ الدَّافِئ. شرحتُ لتجاني ما حَدَثَ، حَدَّثْتُه عَنْ مشاعري تجاهك، وأَنَّكُمَا غير متناسبين. أَدْهَشَنِي أَنَّه ابتسمَ فِي وَجْهِي، غَلَّفَكِ في مَزْحَة؛ ومَنَحَكِ لِي، ألم أقل لك أنه ذكي؟ تركنا الحب يفعل بنا أفاعليه، وأنزلنا جثامينا للحياة لتسكب عليها ماء صاخباً، أنت جمرةٌ حِصْنُها الماء، وأنا فَرَسٌ مضمارُه الريح، أَرَيْتُكِ مِنِّى الشَّغَفَ والجنون، وأَرَيْتَنِي هَوَسَكِ الدَّاخِلِيّ.

عرفتْ أَنَّنِي أُحِبُّك فِي خلاء، مِنْ خِلال وقائع انتحار صديق شول. المُحِبُّ الأطولُ قامةً، ذو البشرة الفاقعة، أشهب إلا قليلاً، عَلِمْنَا برسالتِهِ التي تركها بعد انتحاره، أوقع بالمسئولية على أهل محبوبته؛ لأَنَّهُمْ اعترضوا زواجه منها، تلك القصيرة متواضعة الجمال، قالوا إِنَّ أصوله العرقية لا تؤهله لذلك، أبوه جنوبي مسلم يعملُ مُحَاضِرَاً في جامعة غربية، وأمه مِنْ يوغسلافيا. عَلَّقَ رقبتَهُ على حبلٍ، مُخَلَّفَاً رسالة لا تشبه رسالتي هذه. فَوْرَ سَمَاعِك خبر موته نظرت إلى وجهي كأَنَّك تُعيدين اكتشافي؛ وبعد يومين قُلتِ لي:

ناس بيتنا يا مهيد سمعوا بخبر علاقتنا.

جميلّ كدا قصروا علينا المشوار.

أنت ما عارف حاجة، ديل ما بيخلونا نتزوج خالص.

بدهشةٍ سألتُكِ – ليه؟!

ولم يفتحْ الحُبُّ عليك بكلمةٍ. الأَيَّام قالتْ كل شيء أعدْتُ اكتشاف ذاتي، ما كنْتُ أحتاجُ إلى حفريات.

أنا مُهَيَّد حيدر، أجعدُ الشَّعْرِ، داكنُ البِشْرَةِ، عسليُّ العينين، أرتدي تاريخاً حفّه الصراعُ. جَدِّي لأبي جاءَ مِنْ الجِبَال القصيّة جندياً في قُوَّة دفاع السودان، حارب الطليان في كسلا أسمرا. أجدادي لأمي جنود تاريخيين في مملكة الفونج، استقرَّ بهم التجوال في أربجي. بذل جدي العسكري جهداً في تعليم أبي حتى تخصص في طب الأطفال، تخرجتْ أمي فِي القانون وهي الآن من أشهر

المدافعات عن حقوق الإنسان، شَكْلِي غير مُسْتَقْبَح إِنْ لَمْ أَكُنْ وسيماً؛ إذن كيف يرفضني أهلك؟ وكيف تحبينني أنت؟ الفرق بيني وبينك غير مرئي حتى في الدرجة اللونية، وقياساً على واقعك فالأجدر أَنْ يَرْفُضَكِ أهلي؛ فَمَنْ أَنْتِ؟

نورا حسب الرسول، تسكن قريةً نائيةً على النيل. أبوها مزارع بسيط، وفِي أوقاتٍ أخرى مُرَبِّي غَنَم، أُمُّها قَعِيدَةُ المنزل، لم تنل حظاً من التعليم، أشقاؤها سائقو لواري. لَسْتِ بيضاء ولا بَضَّة، إِنْ لم تكوني بَطَّة تماماً. ترتدين نَعْلاً مِنْ الرَّبَابةِ والضَجَرِ، خرجتِ عن جَرْسِك وما عدتِ حتى الآن.

أعترفُ أَنَّ الألم سَحَقَنِي، وأَحَالَنِي بُدْرَة على وجهك. أترين لو أَنَّ الزَّوْجَ المرتقبَ كان تجاني، أسيواجهه ذووك بذاتِ الرفض؟ قبل دخولِ الجَامِعَة مَا كُنْتُ أعرفُ أَنِّي مُخْتَلِفٌ، ولا كيف يراني الآخر. قبل أنْ تنصبي لِي الفخاخ كنتُ وديعاً لا أفهم أَنَّ ثمة شيء مسكوت عنه، شيء يخصني يتعاطاه الآخرون خلف ظهري، عرفتُ كل ذلك وأنا بين يديك، وصدمتني المعرفة لم تكتفِ بأن تكوني صنمي لشهر أو شهرين، نصبتِ عليَّ سُرادق العزاء أعواماً حسوماً ، سنوات خمس وأنا أتضور جوعاً، أُفَتِّشُ عَنْ قبولٍ محتملٍ، وأَنْتِ تتلاعبين بيّ كَدُمْيَة مِنْ قَصَبٍ صَنَعَها أبوك ثُمَّ قَذَفَ بها إلى المَرْعَي.

نعم! كنتُ أضربك أحياناً، وأَبْكِي عند قدميك مَرَّات كثيرة. فِي لحظات تَمَنَّيْتُ الهروبَ بِكِ إلى غَابَةٍ أو صحراء بعيدة. بكاؤُك واستنطاقُ نَهْدَيكِ لهما نَفْس المُتْعَة، قُبُلَاتُك وصَفْعُ وَجْهِكِ لهما ذاتُ المذاقِ؛ حَدَثَ كُلَّ هذا لأَنَّنِي

أحببتُكِ بِصِدْقٍ، وأنت جرَّدتِنى من ذاتي التي تسكنني. لستُ مندهشاً لعودتك إلى صَفَعَاتِي وبُكَائي غِبّ كُلِّ شِجَارٍ وأنت مملوءةٌ بالشَبَقِ، باحثةٌ عَنْ لعبتِكِ المُمْتِعَة، إذا أخشنْتُ عليك أنعمتِ عَلَيَّ، وإذا تَلَطَّفْتُ بِكِ رَكِبْتِ هامَتِي. سنواتٌ خَمْسٌ أرهقنا فيها البُكَاءَ، وأمتعنا البيوتَ النائيةَ.

حَرَّضَنِي صديقي العَارِفُ بتاكتيك البنات، أَنْ أَفْعَلَ بِكِ ما يَجْعَلُكِ فِي زَمْرَةِ النِّسَاء، وَسْوَسَ لِي أَنَّه فِي حَالِ فَقْدِكِ للبِكَارَةِ ستكونين لِي لا مَحَالة. طَرَحْتُ عليك الفكرةَ، لا أعرفُ الآن لماذا وافقتِ دون تردد، ولم أسأَلْكِ ساعتَهَا. خَرَجْنَا لِنَفْعَلَهَا، وعُدْنَا كَمَا ذَهَبْنا. لم استطع إلجامَكِ، كَبْحُ جِمَاحِي كان أَهْوَن. أعلمُ لو أَنَّنِي فَعَلْتُهَا فستكونين لِي بِالتَّدْلِيس الاجتماعيّ، ولكن لن تكون لي نفسي؛ سأبحثُ عَنْ مُهَيَّد حيدر فلا أجدُه، وسأقذفُ بِحُبِّي إلى معركة لا علاقة له بها ولا قُبْلَة. فَكَّرْتُ أَنْ ألحقَ بالشُّجاع صديق شول، ولكن أوتادي في الحياة كانت أعمق. كتبتُ لك رسالة لتقرئيها بعد مَوْتِي أَسْمَيْتُهَا وثيقةَ المَوْتِ، ثُمَّ أحرقْتُهَا أمامك، لطمْتُك عَلَى خَدِّكِ، وجَثَوْتُ أُقَبِّلُ قدميك.

صِرْتُ خليطاً من الدموع والفشل، لَمْ أَعِرْ الدِّارسة قلبي وعقلي؛ فأعدتُ العام، والعام الذي يليه، لم تدخلي مَعِي في حالة الاختلال، حافظتِ على نقاء وجهك ونتيجتِكِ، فتركتِ الجامعة قبلي، وتركتنِي أَرْشُفُ دِنَانِي المُحَطَّمَةَ. تعرفين بقيةَ القِصَّةِ، زواجَكِ الفُجَائي، نزولاً عند رغبة الأسرة – كما أعلنتِ– وجنوني العارم تحت ضربات العذاب. لن أحكي لكِ كيف مضتْ بيّ الحياةُ، فهذا سردٌ لا

يعنيك، فقط أُنظري إليَّ مِنْ هُنَا، مِنْ ذاتي؛ لِتُبْصِري هل كان قلبي مُخَادِعَاً؟ وهل كُنْتُ أستحقُ زراية الحياة؟ وأين؟ في الحب! الآن وقد علمتُ أَنَّ الحياةَ بدونك ممكنة، الأرضُ أكثرُ اِتِّسَاعَاً، والسَّمَاءُ لا تسقطُ على رأسي. الآن أكتبُ لكِ هذه الرسالة بعد أَنْ رأيتُ صدفةً صورتك الشاحبة، فإذا ضغطت على المُؤَشِّر، وجاءتْك رسالتي؛ اذهبي فأنا الطليق! آه.. عفواً نسيْتُ أَنْ أكتبَ لك اسمِي للمرة الأخيرة؛ فربما اعتراك الزهايمر؛ صورتك لا توحي بشيء أعرفه.

المسخ أو البروفيسور

تَرَكْتُ رَغْدَة تبكي على وسادتها، خرجتُ يتقافزُ إعصارٌ من الدخان أمامي. ليس إبليس مَنْ يدفعني إلى قتلك؛ فما تفعله يندى له جبينه. سأُحطمك يا ذا الخصية المُعَلَّقَة، وأعلقك مِنْ عرقوبك على باب مكتبك، سيري الطلابُ أَنَّ فمَك الكبير ما هو إلا بالوعة للعفن. ابنتي يا رجل؟ لن أقول حتى أنت يا ربيع! فأنت وغدٌ قديمٌ.

جئتنا يا ربيع خجولاً كفتاة بزغت أنوثتها للتو، تحملُ فمَك الفوضوي ناثراً عليه أسنان الحِمَار، هنا سِن وهناك أخرى. إذا ضحكتَ هَرَعَتْ كَفَّاك عَلَّها تستُرُ عُري لِسَانَك، أبرزُ شيء فيك هو بنطالك الذي تمنعُ سقوطَه بِكِلْتَا يديك، أَمَّا شاربك فكل شُعَيرة فيه لا تستصحب الأخرى، وما ينقصه سوي مخاط يتدلى عليه ليعافك النَّاسُ.

كنتَ يا رفيقي المخلوع تتهيب الإناث، كَخَوْفِ الأطفال مِنْ كائنات الليل الخرافية، ألستَ القائل

– أحسن لي آخد حقنة بنسلين ولا أقيف مع حنان

وبعدما تَعَلَّمْتَ الغناء، صدحتَ: " البنسلين يا تمرجي"! كلما أجبرتْك الظروف أنْ تتوقفَ مع فتاة وضعتَ دفتر محاضراتك أسفل الحزام ليخفي فضائحك النفسية،

عقلك يُعَزِّي المستترات، ويحيلهن إناث للغواية؛ حتى وإنْ حَدَّثْتك عن الوضعية المنطقية، وبرتراند راسل.

بيديّ هاتين استلمْتُ طلب انتسابك للحزب، قيل لي إنَّك فأرة مكتبة، تلتهم كُتُبَها بِلا تمييزٍ. لا أنكرُ أنني سعدتُ بك لأَنَّك إضافة نوعية كما يزعم قادتنا، أدهشني خُلوك مِنْ الحب والحياة.

سألتك – أتشرب؟

فنفحتني بتعريفات أربعة الفقهاء للخمر.

سألتك – أتحب؟

فحدثتَنِي عن ابن حزم الأندلسي، وطَوْقِ الحَمَامَةِ في الإِلْفِ والإيلافِ. عرفتُ أَنَّك رجلٌ بين السطور، قلتُ – خير يا صديق.

وعزمتُ أَنْ أُعَلِّمَك الحياة، وأَنْ أجعلَ منك صديقاً يحملُ الحياةَ إلى الكتب، لا يحملُ الموتَ مِنْ الكتبِ للحياةِ، في البدء خِلْتُ أنني نجحتُ، رأيتُك ذات نهارٍ تُضاحك حنان بلا دفتر محاضرات أدني الحزام، ومَرَّة لمحتُك وأنت تضع إعلان لركن نقاش. كُلُّ شيءٍ فيك بدأَ يتغيَّرُ حتى تقتيرك في المال صار مخفي، طفحتَ بوسامة فُجَائية، مشيتُكَ امتلأتَ ثقةً. وحين صارحتَ حنان بحبك وبادلتْكَ الإحساسَ مَحَوْتُ صورتك القديمة، وبدوتَ لِي دون جوان زمانك. تجيءُ الآن وتتحرشُ برغدة، وأنت تعلم أَنَّها ابنتي الوحيدة. سأحَطِّمُ جميعَ صورِكَ فِي ذاكرتي، سأعيدُكَ مسخاً كما كنتَ وسأمحو هذا البروفيسور.

لم أكن لأتصور أَنْ علاقتك بحنان ستخرجُ من فضاء اللغة إلى باحات الجسد، ولكنك فَعَلْتَها، حكيتَ لي والأسى يجتاحُك قلتَ.

– حنان ما بت؟

– طيب شنو؟

– حنان مُجَرِّيَة الرجال.

هَدَّأْتُ من روعك ، قلتُ لك: إنَّ ذلك لا ينتقص من حبك شيئا،. طلبتُك أَنْ تلتمس لها الأعذار، بذلتُ معك جُهْدَاً خارقاً لإخراجك من خيبة الأمل. منظرك يبدو كعصفور أمطرتْه السماءُ وابلَ الأحزانِ. أعدْتُ تشذيب ريشك، وتلميع ألوانك، ألست اليساريّ التَّقَدُّمِيّ؟ تجاوز عنها وقل كالمسيح: مَنْ لم يخطئ منكم فليرمها بحجر. قبلتَ مُعَالَجَاتِي، وعدتَ لحنان فوجدتَها بائسة تنتظرُ إشارةً منك، تَجَوَّلتَ معها لأيامٍ، ثُمَّ ألقيتَ بها في قارعة البكاء، ابتلعتْكَ أوهامُ الرجلِ الأَوَّل. أتريد الآن أَنْ تكون الرجل الأول عند ابنتي؟ الآن يحملك حتفُكَ لبضعَك فِي طريقي. تهدد رغدة بأنها ستفتقد درجات فلسفة القانون إِنْ أَبَتْ عُفونتَكَ. حَدَّثَتْنِي حنان عَنْ نتانةِ فَمِكِ الكبير، وعن خصيتِكَ الوحيدة، مُنْكَمِشَة كفراء قطة طريدة في ليلة ماطرة، عرفتْ أَنَّك ممسوس، ولن تتزوجها؛ فذهبتْ لقريبها القروي اللطيف. لو أَنَّك تزوجتها لكانت ابنتك في عمر رغدة.

سأسحلُكَ يا رجلَ التحرُش، لا تهمني درجتك العلمية، أعرفُ أَنَّك ثابرتَ لأجلها، طأطأتَ رأسك وأنت تشي برفاقك، كلما اتفقنا على خطوة نِضَالِية قرأناها على جدارية تنظيم طلاب السلطة، تلفتنا حولنا لنعرف من الواشي، استبعدنا أن تكون أنت؛ ولكن الأيام أَجْلَتْ كُلَّ غُموضٍ. تَحَوَّلتَ إلى بوقٍ يهتفُ عاش.. عاش؛ لِتَعْتَاشَ وتحصدَ هذه الدرجة الكَذُوبة، ربما أَنَّ الأيامَ لن تعيدَك ربيع النتن، وأَنَّنِي لن أكونَ ذاك الشاب الحيويّ، بِكُلِّ طعنات السنين وانكشاف الأصدقاء. ها

قد اعتليت السلم، ووصلت إلى باب مكتبك، مُغْلَقٌ كالعادة مِنْ الدَّاخِل، ارتطاماتٌ وأصواتٌ تصلُ إلى أُذُنَيَّ، دق.. دق.. دق، افتح الباب.. افتحْ.. افتحْ؛ لأقتلَكَ، بالداخل رغدةٌ أُخرى .. افتحْ.

خرائط الوحيد

اختصرتْنِي لجنةُ التحقيق في هذه الوريقة. مُوَظَّف شؤون الخدمة ذو الجلباب القصير أَشَدّهم سخطاً، انعقد حاجباه في جبينه المعروقة منذ أنْ رآني. صاح مستفسراً مدير التعليم:

– أهذا هو أُستاذ الجغرافيا؟

رمقتُه بنظرةٍ مستعليةٍ؛ ثُمَّ جلستُ لأجيبَ عن أسئلتهم.

– ما فعلتَه تَمَرُّد، تخطَّيْتَ حدودك كرئيس لحُجرة مصححين.

يتخطَّفُوني على طريقة المخابرات، قَبْلَ أَنْ أجيبَ عن السُّؤال يقذفوني بآخر. أدركُوا أَنَّهم لا يستطيعون فصلي من مهنتي إلاَّ باستيفاء كافة الحيثيات. ألقى لي ممثل شؤون الخدمة بورقة وهو ينصرفُ. أعلاها مكتوب استيضاح بخط عريض، أسفل قليلاً: حول منحك درجات الصِّحة للإجابات الخاطئة. أطبقْتُ على الورقة، خرجْتُ مِنْ بينهم باسماً بِهُزْءٍ.

في حُجْرَتِي مهيضة السقف جلستُ أكتبُ على ورقتهم:

أُحِبُّ الخريطةَ، هكذا أنجبتني أُمِّي، تعجبني خرائط التجاعيد على وجهها، خصوصاً أسفل عينيها، حين يَتَّسخُ جلبابي بالماء والطين أعيد توزيع الأوساخ؛ لترسم خُرَطَاً متبايناً شكلها. في المدرسة حفظتُ نشيد : " في القولد التقيتُ بالصديق" عرفتُ الجفيل، ومنقو، خيالي يمتليءُ بالأمكنة، أشجارها، حيواناتها، بيوت السعف والبروش. لن أُبالغَ إذا قلتُ أَنَّنِي عِشْتُ معهم، ركبتُ جِمَالَهُمْ وثيرانَهُمْ.

علاقتي بالزير تَغَيَّرَتْ في الصف الثاني، حينما دَرَّسَنَا المُعَلِّمُ خريطةَ الزير، كنتُ أشربُ ماءَه وأُغَطِّية كقارورة دواءٍ؛ ولم يخطر لي أنه ككل الأشياء له

خريطة، حتَّى فَكَّ طلاسمها معلمي البارع، غَمَرَتْنِي دهشةٌ وإعجابٌ، وقدرةٌ على خَرْطَنَة كل الأشياء. في الصف الثالث حملتُ الخريطة بين يديَّ، دَسَّ المعلمُ الكنزَ، ومنحنا خريطة لنحصل عليه، حملتُها وتَصَدَّرْتُ الباحثين، أسيرُ بها مَزْهُوًّاً، أتلقفُ نظرات الإعجاب من أهل الحي. حين وجدتُ الكنز منحت البلح والحلوى لزملائي، فقط طلبتُ مِنْ المُعَلِّمِ أَنْ يمنحني الخريطة، زُمَلائي أكلوا حلواهم ولازلتُ أَحتفظُ بكنزي. في سنواتي المُتَقَدِّمَة أسموني الأطلس المتحرك، الزملاء يستعينون بي في معرفة ما يَوَدُّون عن بلادهم الكبيرة، دلتا طوكر، ومسارات الهبباى، خطوط السكة حديد، حتى تلك التي تدخلُ محالج القطن. أضعُ يدي على الخريطة مُغْمَض العينين، وحين أفتحها أُسَمِّي المنطقة دون أنْ أقرأَهَا.

جئتُ للآدابِ لأَدْرُسَ الجغرافيا لا غير، لا يُهِمُّنِي هذا الحشو؛ ولو كانتْ تُدْرَس في الطب لدخلته، عشرون عاماً منذ تخرجي؛ ولو طلبتم مني رسم خريطة لنظام الري في السنتر لرسمتها كما وضعها بُنَاتُها الانجليز. سألتم طلابَكُمْ عن الدولة لِجِهَةِ الجنوب، وكَتَبَ بعضُهُمْ يوغندا. سألتم عن المشاريع الزراعية العاملة، وقد تَرَكَ بعضُ الطُلَّابِ مساحةَ الإجابة شاغرة بربكم أليست هذه إجابات صحيحة؟

أتعرفون أَنَّنِي أحببتُ زميلي محمود الاريتريّ لأَنَّه يُعَلِّق خريطة وطنه على رقبته كتميمة قد تنفعُ. يعشقُ جبالها ووديانها. التقينا في حُبِّ الخرائط، وافترقنا في الاشتغال بالسياسةِ، فهي بغيضة إلى قلبي. بعد أن نالت اريتريا استقلالها عن أثيوبيا، نظرتُ للأمر كَأَنَّهُ تغيير في خريطة جيراننا فقط، وما كنتُ أعرفُ أَنَّ ذلك سيحدثُ عندنا. ظلَّ محمود يشتغل بالسياسة، دائماً يُحَدِّثُنِي عن

تغيير نظام بلاده. في السنة الرابعة استأمنني الخريطة التميمة، ذهبَ إلى بلاده ولم يعد حتى الآن، وما زالت تميمته معي تبحث عن رقبة محمود.

تعلمون عن حياتي وتتندرون بها في مجالسكم السمجة، صحيح أنني وحيد، تزوجتُ الخرائط وأنجبتُ الأطالس. أنفقتُ عُمْرِي في التجوال بين مدارسكم، ولي ذكريات أضاهي بها حسن نجيلة، حقيبتي الحديدية مليئة بالكتب والخُرَط، ورأسي الكركي مُحَمَّلاً بالهضاب، قلبي ملئ بأغبرة المدارين، وتيارات البحار. مَنْ جَعَلَكُمْ لَجْنَة تحقيق؟ ولِمَ تضعون الامتحان على هذا النحو؟! أتمتحنونَنِي في ذاتي؟ أَتُسَفِّهُون خرائطي؟ أعرف أَنَّ مَنْ بعثكم من مكتبكم مشغوف بالثنائية! غَيّر الزمن، وصنع لنا توقيتين، قديم وآخر جديد، عُمْلَتَان ديناراً وجنيهاً، أعراس للموتى والأحياء. تعايشتُ مع كل هذا وحيداً؛ ذا خريطة واحدة، الآن أنا وحيد، والخريطة اثنتان، هذا يَمِسُّنِي فِي وجودي، ويُريقُ حياتي أنا مُعَلِّمُ الجغرافيا، لا أستطيعُ اعتمادَ إجاباتكم المضللة بوصفها إجابات نموذجية.

إذن:

أيها المحققون الأشاوس، وعَطْفَاً على ما ذكرتُه سأشطبُ كلمةَ استيضاح؛ لأكتبَ مكانها الكلمة المناسبة والجريئة (استقالة) أَعْلَمُ أَنَّكم ستقبلونها فرحين، وأَدْرِكُ أَنَّنِي حين أمنحُكم ظهري أُفَارِقُكم وهو أكثر استقامة.

سُومَا وصَبُّوحَة

باضتْ الطائرة وأفلتَتْنِي لأسقطَ في فخِّ الوطن. تَمَزَّقَ نِقَابي فِي غلافه الحيوي، رأتِ الأبالسةُ وجهي وأنا بين الأرض والسماء. في دُويلتِهِمْ العربية لَمْ اختلط بالنَّاس رجالاً أو نساء، حتى عالم الفتيات لم يستوعبني لسواد بشرتي، في الصف الأول حَكَّتْ زميلتي خَدِي ثُمَّ سألتْنِي.

– شو هادا ؟ أسفلت؟

أَدِرْتُ خَدِي عنها، فَحَكَّتْ بِظُفْرِهَا الآخر، لفَّني إحراج سخيف. كلما سَخِرْنَ مِنِّي رَدَدْتُ عليهن أكاديمياً، لهن البشرة البيضاء ولي عقلي المتقد، تَصَدَّرتُ جميع الصفوف، لم أكن مستمتعة بالدراسة، أُلقى بناري على الكتب؛ فتحترق في رأسي، أحملُ شُعْلَتِي إلى حجرة الامتحان لأعيدَ كبريائي وأسمو عنهنْ، وبمرور الوقت صِرْتُ كافورة تحكمُ البيضاوات.

ارتطمْتُ ببلادي كنيزك ليس له أنْ يحيدَ عَنْ مسارِهِ. هَيَّأَنِي أبي لذلك في الأسبوع الأخير، أَسْمَعَنِي كاسيت غنائي لعبد الكريم الكابلي، وبعضَ الدوبيت والمساديرِ، ونَفَحَنِي ببعض الوصايا التي رآها كفيلة بجعل إقامتي ممكنة، بل وسعيدة.

في الجامعة أدهشني تباينُ الأزياءِ، واحتفاءُ النَّاس ببعضهم ذكوراً وإناثاً، مُكَبِّرَاتُ الصَّوتِ تلعنُ وتُؤَيِّدُ. الطالباتُ يمضغن السندوتشات تحت بصر الرِّجال. كُنْتُ كجاريةٍ من العصر العباسي قذف بها الزمنُ إلى حَشْدٍ غريبٍ، أَوَّل مصافحة ذكورية قلبتْنِي رأساً على مُؤَخَّرَة، وضع الرشيدُ كَفِّي العطشى في كفه الشقيَّة، ونظرَ في عينيّ ناثراً بذوره فيهما، شعرتُ بنمو ذاك الشيء المسمى حباً، ولو أَنَّ نموه اكتملَ؛ لكانت قصتي مختلفة ولما قابلتُ سُومَا.

جذبني للرشيد فَكُّه القوي، أسنانه الكبيرة البيضاء، وعضلاته المتناسقة.
تابعتُه وهو يجري في ملعب الجامعة، يركلُ الكرة؛ فتهتفُ الطالبات باسمه ويَتَحَلَّقْن حوله. حجزْتُ لنفسي مساحتها وأزحتهن جميعاً. لا أُحِبُّ كرة القدم، ولا هذه الجلبة العالية، يستهويني الكابتن بنظراته وعضلاته. وقعْتُ في حبه والِْتَوَى كاحلي، خرجَ مِنْ الملعب محمولاً على الأعناق، مُسَجِّلاً أورع الأهداف في شباكي البكر.

وجدتني سامية انتحبُ تحت ظلال اللبخة الكبيرة، أزللتُ دمعي في حجرها دون سابق معرفة، أعطتني منديلها فوجدتُه خشناً، شراشفه تفوح بعطر رجالي، قبلَّتني في جبيني، وداستْ على كَفِّي بقوة ثم سألتني:

– أنا سُومَا؛ الجميل اسمو منو؟

لم انظر إليها حين قلتُ – صباح

وجدتُها صامتة تنظر إلى جسدي، فَزِدْتُهَا

– أيوا شهادة عربية.

حاولتْ أَنْ تُدَاعِبُنِي فقالتْ:

– طيب يا صبوحة! أنا ذاتي شهادة عربية من أم طرقاً عُراض.

لسنا ريا وسكينة، هما قاتلتان، ونحن عالقتان، ماذا أفعل وقد غادرني الرشيد بلا تفسير أو حتى تمهيد، عام كامل وهو يحرقُ لي بخور المفردات، يشعلُ ذاكرتي بشبق الأمكنة، يُحَدِّثُنِي عن الزواج في قريتهم، عن بدانة النساء، وخفاضهن الفرعوني، يَتَغَزَّلُ فِي لَكْنَتِي الخليجية، استلمني ورقة بيضاء فِي طرد مغلق بالشَّمْع الأحمر، فَضَّ الطَرْد؛ وكتب مأساتي، ثم ألقى بورقتي ليدوسها مشجعو فريقه.

تذكرْتُ أَنَّنِي كُنْتُ قد رأيتُ سوما في الداخلية ترتدي رداء رجالي قصير، تضعُ قُبعة على رأسها، وتُغطي عينيها بنظارة سوداء، لَفَتَ نظري فَكَّاها القويان، وشفتاها المُطْبَقَتان على عنف دفين. لم يحدثْ أَنْ حادثتْنِي. للمرة الأولى مررتُ منديلها على دموعي، وكتبتُ حكايتنا المشتركة. طرقتْ على جُرْحِي وهو نازفٌ ، زارتْنِي عصراً في غرفتي، قالتْ أَنَّنِي حزينة، وأَنَّهَا لن تتركني وحيدة أَجْتَرُّ أحزاني، شعرتُ بالمساندة، وتسلل إلى جسدي دفءٌ مريبٌ، في الليل شاركتني الفراش؛ لامستْ لوعتي وأنا أحكي لها عن انخداعي في الرشيد، تحضنُنِي بلطف وتهمس في أذني " أنسي.. انسي وسأعَوِّضِك كل شيء.".

عَوَضَّتْنِي أشياء؛ وأضاعتْ عني أخرى. انصرمتْ سنواتٌ، لم أعد أذكر الرشيد، تلقفتْ دهشتي وقذفتْها فِي هَدْأَةِ الليل. أبكتني وأبكيتها، صحلتْ أوردتي من النبض باسمها، ولم تتوقف أجراسها عن الرنين. دنانيري تفر من بناني إلى حقيبتها، كنا ننتقل من غرفة لأخرى؛ يصحبنا هَمْسُ الطالبات وإشاراتهن المفضوحة، ولأَنَّ أبي يغدقُ بالمال على صَبُّوحَتِهِ صِرْنَا نُؤَجِّرُ في السكن السياحي، ونسوح في هضابنا الخاصة. أرسلتُ لأبي من بعض ماله كاسيتات اللحو، ندي القلعة، وود البكري.

سُومَا من قريةٍ ابتلعتْ حوافَها أشجارُ المسكيت، تتقدمني بسنة دراسية وتكبرني بأعوام ثلاث، تدرسُ الهندسة الزراعية. قالتْ لِي ذات مَرَّةٍ أَنَّها لم تكن تحلم إلاّ أن تكون قابلة ممتازة، ولكن النتيجة قذفتْ بها إلى هنا. الطالبات لا يجدن مبرراً لامتداد علاقتنا، فتتسرب الشائعاتُ والنِّكَاتُ حولنا، ما كنتُ أكترثُ لشيء سوي سُومَا وعالمها الغرائبي، عَلِقتُ فيه كأَنَّنِي لم أُفْتَتَن يوماً بالمدعو الرشيد.

تخرجتْ سُومَا قبلي، وَدَّعْتُهَا بالدموع وأغلظ الاتفاقات. عليها أَنْ تَزُورَنِي مَرَّتَين كل شهر وأنْ تُحَدِّثَني بالتلفون يومياً قبل النوم، هكذا اتفقنا حتى ألتحقُ بها.

في زيارتها الأخيرة بدأ عليها التوتر والشرود، ولم تهمس في أذني، وحجبتْ عني التعويضات، سافرتْ في الصباح، تركتْنِي نائمةً؛ ولم تمنحني حق إلقاء النظرة الأخيرة، ذهبْتُ للكلية مُشَوَّشَة، ومَشُوبة بالخوف، قابلني الرشيد يوزع ابتساماته على الطريق، توقف عندي وسألني

- سمعت بخبر خطوبة سُومَا؟ الزوج قالوا مغترب.

لا أذكر كيف هو حالي، وهل أجبتُ عليه أم لا؟ ليتها كانت قابلة من الدرجة الأولى، شعرتُ بانقباضات كأنها الولادة، اتصلتُ بها على تلفونها، جاءني صوتها من بعيد؛ خِلْتُهَا منهمكة في إجراء خفاض فرعوني وبين يديها طفلة باكية، سألتُها وأنا أزيحُ قبضةَ البُكَاء عن حنجرتي:

- كيف الكلام دا .. كيف .. والبينا؟!

قالتْ .. وقالتْ؛ فأزهقتْ اللغة عبر التلفون، وأنا لا أذكر شيئاً غير أنها حاولتْ إقناعي بِأَنَّ الأشياءَ هُنَا تنتهي هكذا، وأَنَّ عليها أَنْ تَتَزَوَّجَ كسائر إناث الرجل.. وأَنَّ.. وأَنَّ.

خنقتُ الهاتف؛ فَغَطَّانِي ذهولٌ، لمحتُ الرشيد يضاحك أنثى خلف الشجرة التي أبكاني تحت ظلها، حين رَنَّ تلفوني مرة أخرى تمنيتُ أن تكون سُومَا ،

تُخْبِرُنِي أَنَّها لن تغادرني هكذا والآن، فتحته بيد مرتجفة، جاءني صوت رجولي، بعد برهة عرفتُ صاحبه، إنُه أبي أخيراً، أخبرني انه أنهي عمله بالخليج، وأَنَّهم عائدون الأسبوع المقبل؛عائدون ليبحثوا عني، ويشهدوا تشييع سِرِّي غير الصغير.

أعرج المشرحة

الحافلاتُ خَلُدَتْ إلى أَزِقَّتِهَا، المواطنون الشرفاء كالعادة ناموا مبكراً، غالبية الزوجات في ضجر، الإضاءة مِنْ أَعْمِدَةِ الكهرباء تبدو كدمامل في وجه أغبر، انتشرتْ سياراتُ شُرطة التفتيش، تجول بين شارع القصر الجمهوري، والقيادة العامة. في الليل كل الشوارع مُتَّهَمَة، عليها أَنْ تفتحَ ساقيها لسيارات ذات دَفْعٍ رباعي. أحاولُ أَنْ أَتَذَكر ما حدث؛ فبالرغم من المواجع إلا أن الغُرَف تشهق بالليل، ومستشفيات الولادة مزدحمة بحديثي الوجع، ما أتذكره أنا يتقاسم الناس تفسيره.

قابلتُهُ صدفةً في ميدان أب جنزير، لا أعرف سبباً لتسكُعِي هناك، على الأرجح أبحث عن صديق أشاركه غرفةً، وأشربُ معه شاي الصباح، العشاءُ عَصِي الإدراك، خاصةً مع تدامج الوجبات؛ دَرْءً لفتنةِ التخمة. حين سمعتُ صوتاً يناديني كنْتُ أُدَنْدِنُ.

تاني ما تقول انتهينا بتنهي جيل بنظر إلينا
انحنا قلب الدنيا ديا انحنا عز الدنيا بينا
انحنا يا دوب ابتدينا.

طرق على كفي بخفة، التفتُ نحوه، فصافحني بقوة، متكئاً على رجله السليمة. كَفُّه الضخمة توازي حقيبة يدوية، وبحسب طوله الفارع؛ فإنَّه سيتمكنُ مِنْ دَهْسِي إذا كانت له قدمان. منعني الظلام من رؤية وجهة مُكْتَمِلاً، ولكن ابتسامته المنتشرة في خديه تُبْدِي تَرْحَاباً، وتُضْمِرُ قولاً. بَدَأَ يتحدَّثُ حَوْل أَنَّنَا زُمَلاء، شركاءٌ في المَسْكَن والقاعة؛ وما يحدثُ بيننا مِنْ عُنْفٍ لا مبرر له نحن جيل واحد، مالنا

ووقيعة الكبار؟ نحملُ السِّيخ والسكاكين على بعضنا، بينما هم يأكلون سوياً. خَتَمَ حديثَهُ بِأَنَّ علينا هتك حجاب المعاصرة؛ وبناء وثيقة سلام. استمعتُ إليه وأنا مُهَذَّبُ الإنصات، ثُمَّ قُلْتُ

– يا راجل كل هذا بعد انقسام سلطتكم وحزبكم.

– لا لا! الموضوع هو التسامح وترقية بيئتنا.

قلت – ألم تقتل منتصر عبد الرحيم بدم بارد؟

ألقيتُهَا في وجهه هكذا، وأنا مقتنِعٌ أَنَّ أدواتِ وجهه التي لا أبصرها، أقطبتْ كَجَوْرَبٍ قديمٍ، وأَنَّ الدم سيغلي أعلى نافوخه الخَرِب. ولو أَنَّ الشَّمسَ تَسْطَعُ الآن وتلتقطُ صورةً للقاتل لَدَوَّنَتْ اسمه في لائحة الاتهام الابتدائية.

أعرفُ أَنَّ تنظيرَهُ ضد العنف، ومحاصات كبار السَّاسَة للصغار؛ حقيقة نعيشُهَا، أعرفُ أَنَّ علينا ألا نقتل بعضنا، القرابين البشرية قضتْ على إحساسنا بالحياة، ولكن أَنْ يأتي هذا الكلام من الأعرج ذي الكف؛ فهذا ما أسميته عظات الذئب. قبل أن يجيب عن سؤالي سحبتني الذاكرة نحو ذاك اليوم.

لم نكن نحاول إسقاط شيء، ليس لدينا مسدسات أو حتى زجاجة ملتوف، فقط نريد تحسين حياتنا الطلابية ما يسمونه بيئة وخدمات، ثُمَّ أَنَّ الوقتَ ليل ، وكنا نريد أَنْ ننام. قفزنا الأسوار ، وبدأ بعضنا يهتف ويخرج مرة أخرى، هتاف وخروج، دخول وهتاف ثم قامتْ قيامة الدخان، وعَوَتِ الأعيرةُ النارية، كنتُ مَعَ منتصر في الطابق الرابع بداخلية المنهل، هبطنا السلم فوجدنا زملاءنا يحملون علينا، يشرعون في وجوهنا السيخ والهراوات، وبحسب تغذيتهم الجيدة؛ فأبدانهم أكثر مِنَّا بَسْطَة ومِنْعَة. الأعرج يقود الكتيبة، ويتوسط الجميع، يوزعهم كيفما شاء. هزمونا وتفرقنا قطعاً متناثرة، حيثُ اختبأتُ خلف صهريج المياه لم

أجد منتصر إلى جواري. ساقوا البعض أسري، أغلقوا الغرف على آخرين، اعتليتُ صهريج المياه؛ ثم قفزتُ للشارع. بضع سيارات تعبر الطريق، والناس نيام، هرولت أجري.. وأجري.. حتى وصلتُ مَيْدَان أب جنزير، حيثُ أُحَادِثُهُ الآن. بدأتُ رحلة البحث عن مكان أنام فيه، انتصفَ الليلُ وآوي عمالُ الكافتيريا إلى مناضدهم، ومع حظر التجوال لا استطيع النوم هنا.

هداني عقلي المتشرد للمستشفى، لو أَنَّنِي ذهبتُ فسَأَجِدُ فريق أمنها قد أخذتْه نَوْمَةٌ، جررتُ قَدَمَي فِي شارع الأسفلت، أمامي المستشفى وخلفي القصر الجمهوري والجوع يتوسطني.

دخلتُ المستشفى بثقة من يعاود مريض، اخترتُ أنْ أنبطحَ جوار عنبر الباطنية، على نجيلة خِلْتُها عانة لمستشفى مُنْتِنَة، منعتني زحمة النساء وتكدس النواح من البقاء، وخِفْتُ أَنْ يُفْتَضَح أمري، رأيتْ كَوْمَة ترابٍ جوار حائط المشرحة، كومة باردة من التراب جيء بها لصيانة المبني، القططُ لم تستخدمْهَا بعد لدفن فضلاتها. رقدتُ على الرمل محاولاً النوم، أَهِشُّ البعوضَ، وأتوجَسُ من مواء القطط السمان. سمعتُ أصواتاً عند باب المشرحة تتحدثُ عَنْ سَبَبِ الوفاةِ. رفض الطبيبُ أَنْ يستجيبَ، جاء طبيب آخر زعم أَنَّه تفهم الأمر، رأيتُ الأعرجَ يَتَكِئُ على الدرابزين، مُرْخِيَاً عَرَجَتَهُ، يتحدثُ ويَسْعَلُ، ثُمَّ يُلَوِّحُ بيديه، أدركتُ أَنَّ أحدهم حِيلَ بَيْنَ جَسَدِهِ وروحه، تَمَنَّيْتُ أَنْ تنفتحَ كَوْمَةُ التراب وتبتلعني، تكتبُ القططُ شِهَادَةَ وفاتي بأسنانها ومخالبها. بعد ساعة خَرَجَ الجَمْعُ حَامِلاً النَّعْشَ المجهول؛ سكنني الخوفُ، وتقمَّصَنِي الوسواس وظَلَّتْ أصواتُ القَتَلَةِ تَرِنُّ فِي أُذُنَي وأنا أقرأ المعوذتين.

في الصباح ذهبتُ للجامعة، دَهَمَنِي الخَبَرُ الصاعقة، وَجَدَ المسؤلون عَنَّا مُنْتَصِر قتيلاً بِأَحَدِ خيران القماير، كان يرقدُ في المشرحة مُضرَجَاً بدمائه، وروحه تُحَلِّقُ حَوْلِي فِي كَوْمَة التراب. ذهبَ الطبيبُ والمسؤلون وبعضُ القَتَلَةِ فِي جَنَازَتِهِ، وبقينا نبكيه خلف الأسوار. غَمَرَني حزنُ الذكري، ولكن صوت الأعرج اقتلعني منها؛ ها هو يقفُ أمامي ليقولَ – هل تُصَدِّق أَنِّي بِرِجْل واحدة أقدر على قتل إنسان؟

أدركتُ أَنَّه سيستخدمُ عاهتَهُ ليستولَ عَطْفِي، يا للجبار! هَجَسَ لِي أَنْ أقولَ: ماذا لو كان هذا الإنسان مُقَيَّداً على كرسي ومعصوب العينين؟ ماذا لو رأيتَهُ مَحْض إبليس رجيم؟ أو استحقرتَهُ؟ ثُمَّ رأيْتُ أَنَّ اللغطَ عَلَى قَارِعَة الطريق، وفي منتصف الليل لا طائل منه بجميع جهاته، قلتُ له:

– ليس قبل أَنْ تظهرَ الحقيقةُ، التسامح خير، لكن الغفران يحتاج إلى الحقيقة.

وَعَدَنِي أَنَّنِي إذا تبنيْتُ فكرتَهُ، ونشرتُها بين الناس فسيكون لي بعد التَّخَرُجِ شأن عظيم؛ أقله سفيراً بالخارجية، أَلَمْ أُبْلِي حَسَناً في رَأْبِ الصَّدْعِ؟ ووعدْتُ نفسي أَنْ أَتَذَكَّر منتصر دوماً، وأنْ أبكيه عِنْدَ كُلِّ مَشْرَحَةٍ، أو كَوْمَة رَمْلٍ، وَعَدتُهَا أَنْ أَكونَ أَوَّل شَاهِد فِي لائحة الاتهامِ.

ديالكتيك.. جلوس

قال لي – الفتاة التي تجالسك يَنْحَسِرُ فستانها عن جسدها، نَبِّهْهَا.

شَكرتُه، وانصرفتُ عَنْه يلفُنِي الذهولُ. أبصرتُهَا تضعُ رجلاً على أخرى، ساقاها فاقعتان، يسقطُ عليهما ضوء لَمْبَة النايلون، نِثَار الزغبِ لا يُخْفِي مِنْ نعومتِهَا شيئاً؛ لمحتُكَ – أَيُّها الجمالُ– مَبْذُولاً فِي عَفَوِية، أسررتُ فِي نَفْسِي الهَاجِسَة أَنَّ الزَّميل الذي طلب حضوري لإخباري بأمرٍ جللٍ عن فتاتِي بُهِت، فالإناثُ أَعْتَمْنَ خلفَ ثيابٍ لم تكن لهن فصرْنَ تحت المنعِ أكثر إغراء، نسي مُحَدِّثِي أقاويلَه حول بنيه الوعي التناسلي؛ الذي ظَلَّ على الدوام يشنف به آذننا في أركان النقاش، مُتَّهِماً به السلطة، ها قد وقع فِي مَأْزَقِهَا.

حكيتُ لفيروز ما ذكر الزميل، حول انكشاف فستانها، وإنَّ ساقيها تغويان مَنْ بِالكافتيريا عُمَّالاً وطُلَّاباً، ضَحِكتُ وهِي تُرْخِي نظَرَاتِهَا لِتَرَى مَاذا أَحْدَثَتْ ساقاها مَنْ الأرض لم أَرَ فِي عينيها استهجاناً لديالكتيك الجلوس.

كانتْ لِي حبيبة تشغلُنِي عنها، احْتَكرتْنِي كقطعة إكسسوار. أَمَّا فيروز فهي رفيقة الحزب، كلما لمحتُها قفز إلى ذهني هيجل وإيمانويل كانط. حبيبتي تَعْشَقُ العبثَ والفوضى غَيْر الخَلَّاقَة، عَذَّبَتْنِي كثيراً ثم افترقنا، عَذَّبْتُهَا أيضاً بطغياني الذكوري، خرجتُ مِنْ لَدُنِهَا كَطَيْرٍ مَهِيض الجناح، خَرَجَتْ مِنِّي كبَقَرَةٍ واحلةٍ فِي الطين. الآن أعدتُ اكتشافَ فيروزة الحزب، تِلك التِي تَأْلَفُهَا المعتقلاتُ والثعالبُ والرُبْدُ. قالتْ – هل أُعَدِّل مِن جلستي؟.

– لا لا !الأمر لا يستدعي، المسألة فِي عقل الزميل فقط.

تَحَرَّكْتُ من موقعي نحو صاحب العصير، لَمَحْتُ قارورتي عَنْ بُعْدٍ، ليس ثمة من يترفق بها. يا لكشفِكَ أَيُّها الزميل! انسكبَ العصيرُ على قميصي وأنا أَتَأَرْجَحَ بِهِ لَمْ أَلْحَظْ فِي ساقيها ذاك الوقار الهيجلي، كانتا نتشويتان تنضحان بالحياة، تَصْرُخَان بالقوة، قُلْتُ إنَّ الحياةَ ستنتخبُهَا لِي.

ظللنا نلتقي لندرسَ خُطَطَ الفوزِ بمقاعد اتحاد الطلاب. تحدَثْنا في العلمانية، وفلسفة الجمال، علاقة الروح بالجسد، ونهاية الكون، تكبرُ فيروز كلما اتسع الحوار، وتتضاءل حبيبتي البائدة في داخلي كموجة فاترة، فيروز تسقى بذرة الحب كلما ناقشتني، تُجَالِسُنِي بذات النَّحْو فأزعمُ أَنَّنِي ذاهبٌ لإحضار شيء، فقط لأسْتَرِقَ مَشْهَدِي الأثير، قررتُ أَنْ أَبُوحَ لها دفعة واحدة بلا مُوَارَبَة أو تكتيك، لن أعبأَ بأجواء الحزب المُلَبَّدَة بِنُذُرِ الانقسام، لَطَالَمَا كُنْتُ أرفضُ الاستغراقَ فِي هذا الجسم اللزج.

انعزلتُ بها ظِلاً قصياً، جلسنا على عَتَبَة الإكزام هول، تَوَقَعَتْ مِنِّي حديثاً خَطِيرَاً فِي السياسة، أنا المُولَع بِهِمَا، عَيْنَاها تُومِضَان وقلبي يرتجفُ، لَمْ تشفعْ لِي خِبْرَاتِي الطويلة في لفظ كلمة " أحبك" هَجَمْتُ عَلَى اللغةِ كَأَسَدٍ جَائِعٍ؛ أَبْعَدْتُ كُلَّ المُفْرَدَات عَنْ شَفَتَي ، وقُلْتُها بَتْرَاء " أحبك يا فيروز" ! صاعقةٌ ما حَلَّتْ بها، لَمْ تُمِتها تماماً ولكن أغرقتْها فِي بُحَيْرَة مِنْ العَرَق، أَكَادُ أُبْصِر لِسَانَها معقوداً بين فكيها، شيء ما في حجم ليمونة يصعدُ مِن بين ساقيها إِلى حُنْجَرَتِهَا فيردعها عن الكلام، تقعُ عيناي على عينيها البارقتين فِي ذهول واضح ومحبة مستترة، فرقعاتُ أصابعِهَا تَرِنُ فِي أُذُنَي طق.. طق! الذهولُ من اجترائي شَلَّهَا تَمَامَاً، لَمْ أَكُنْ أنتظرُ مِنْهَا إجابةً، فأنا أَدْرِكُ كَمْ هِيَ عاقلة ورزينة، أمتعْتُ نفسي

باللحظة وأسطوريتها، ودِدْتُ لو أَنَّهَا تمتدُّ لبقيةِ حياتي لأَزيحَ غِطَاءَ الإيستمولجيا عن هذه الأُنْثَى المُلْتَهِبَة، لأَصيرَ مثواها الأخير.

وفِي يوم البوح العظيم، تَصَدَّعَ حِزْبُنَا الأثير، صار اثنين، بينما كُنَّا اثنين نُحَاوِلُ أَنْ نكونَ واحداً، لستُ مُسْتَغْرَقَاً فيه، لكن كلمتي يجب أَنْ تُقَال، لَمْ استشر فيروز فقد كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهَا سَتَقِفُ مَعَ الجَانِب المُحَافِظ، ستقفُ حَيْثُ ما يُسَمَّى الأَصل، كَعَادَتِي وقفْتُ فِي الجَانِب المُتَمَرِّد، وذهبْتُ بعيداً فِي المطالبة بالتغيير لدرجة لا يمكنُ معها المكوث بالحزب. فيروز غمرتْها أَصَالتُهُ وبريقُ كهولته؛ دَسَّتْ عَنيِّ كل ما رأيتُهُ عند عتبة الإكزام هول فِي رِكَام الوَقَار، تُقَابِلُنِي كَرَفيقٍ غَابِرٍ، وألقاها كحبيبةٍ عابرةٍ، لا أَنْبُسُ لَهَا بِكَلِمَتِي مُجَدَّدَاً، فقط أُعِيدُ بَوْحِي فِي ذَاكِرَتِي لأَقْصَرِ حُبٍّ وأَدَهُ اِنْقِسَامُ حِزْبٍ.

سونغ يفضل السلامة

الشَّعَاراتُ البَدِينةُ تجولُ فِي السُّوقِ؛ ولا تَمْنَحُ أَحَدَاً خُبْزَاً، الشَّمْسُ تَصْعَقُ الرؤوسَ المُوَطَّاَةَ. آلافُ الصينيين يبيعون الفكس فِي شَارِع المليون مجنون، جِوار الجامع الكبير يَتَحَلَّقُ بعض السودانيين دَهْشَةً مِنْ نُحولِ الإناث، وأقوامٌ لا يَعْرِفُون مَدِيدَةَ الدُّخُن يصيحون " نيخا.. نيخا" .. فكس فكس" مِنْ أَصْلَابِهِم انبثقَ فِي هُدوءِ البروفيسور سونغ لاشي. هَبَطَ بَعِيداً عن الفكس، وحَفَّارات النفط التي تطعنُ عميقاً فِي أرض النوير، مُهِمَّتُه تأسيس قسم اللغة الصينية بكلية الآداب، تَمَّ اختيارهُ لأَنَّه يجيدُ العربية والانجليزية. جَاءَ مُدَجَّجَاً بالمعاجم والأجهزة الصوتية، وثقافة جَيِّدَة عَنِ السُّودانِ.

نسي سونغ إحضار ناموسيته الصينية، وتَعَمَّد تَرْكَ زوجته في الزيارة الأولى، أصابتْهُ ملاريا سِنَّارِية، لَمْ يكتبْ قصيدةً فِي وصف الحمى لِتُدَرَس في بلادِهِ، تحت تأثير الهلوسة، وإحساسه بدنو الأجل طَلَبَ مِنْ زَوْجَتِهِ الحضور؛ وإعادة جُثْمَانَهُ ليحرقَ أَمَامَ سورِ الصين العظيم. حين وصلتْ الزَّوْجَة وجدتْهُ فِي عَافِية بشورت قصير يُسَخِّن الماء لشربه، عَادَ سونغ إلى عَمَلِهِ بِجِد تصحبه زوجته اللطيفة.

قالتْ لِي– نحن نحبكم لأنكم قتلتم غردون

– وماذا فعل لكم غردون؟

– أووه غردون مجرم حرب.

مَنَحتْنِي الكاميرا لألتقطَ لها صوراً أَمَام المبني التذكاري لمجرمِ الحرب، تَمَكَّنْتُ مِنْ رؤيتِهَا عَبْرَ العَدَسَة، تَتَمَتَّعُ بذاتِ قوام بائعات الفكس؛ ولكن وجهها أكثر صفاءً، وشَعْرَها مُصَفَفَّ بطريقة برجوازية. كَلَّفَنِي مستر سونغ بصحبتها كُلَّمَا ذهبْتْ لتلعبَ البنج بونج، ذات عصرية استوقفنا أمن الجامعة، قالوا وعيونهم نحوي:

– المرا دي لبسها فاضح وخليع.

رَدَدْتُ – دي أجنبية وثقافتهم كدا.

أَمَرُونِي بِأَنْ أَنْقُلَ لها رأيهم، وأُطَالِبَها بِالرجوع لتبديلِ ملابسها بِأُخْرَى أكثر احتشاماً. أَجِلْتُ بَصَرِي فيها، امرأَةٌ تَخَطَّتْ الأربعين بقليل ترتدي إسكيرت قصير، بحيثُ تظهرُ بَطْنُ ركبتِهَا، ثدياها نَاضِبَان تَمَاماً مِنْ الإثارة، البَتَّة ليس فيها شيء مِمَا ذَكَرَهُ فَنَّانُو الحقيبة، لا خصر، ولا رَدَف؛ ورغم ذلك صدعْتُ لأَمْرِهِمْ وأَخْبَرْتُهَا ، نَظَرَتْ لِجَسَدِهَا باحثةً عَنْ شَيء مزعج، أَقْطَبَتْ حاجِبَيهَا مستنكرةً، لَمَحْتُ فَرْحَةً مُنْدَّسَة بأنوثتها التي أفزعت رجال السلطة، تَأَكَدتُ أَنَّه ليس ثمة أحدٌ يَحْفَلُ بها في بلادها؛ ولو ذهبَتْ بملابِسِهَا الداخلية. شرحتْ لِي أَنَّ لهم فِي كُلِّ فَصْلٍ ومَوْقِعٍ مَلْبَس، قلتُ لها، لنا الجلباب فِي المسجدِ، والعَرّاقِي عند شرَاب القهوة وصفاء الزوجة. لم تُبْدِ ألماً من هذه الحادثة ولكن بعد أيام قلائل حَزَمَتْ أمْتِعتَهَا وغادرتْنَا، تاركةً زوجها يتأففُ مِنْ الكَتَّاحة والهَبُوب.

– سودان خن لينق! Sudan is very hot!

– جاينا سميانج ؟ what is about china?

حَدَثَ بَيْنَنا تبادُل تعليمي، قُمنا بسودنة عربيته، وقام بتطوير إنجليزيتنا. يلجأُ للضربِ بالمسطرة لتعليمنا؛ فنعاقبُهُ بمصافحتنا الحارة، وأحضاننا التي يزعم أَنَّها تنقل العدوى. خارج المُحَاضَرة يتحوَّلُ إلى صديق حميم، يُجالسنا في الكافتيريا والنجيلة، ويحضرُ أركانَ النِّقَاشِ.

وَقَفَ بجواري يستمعُ إلى الطالب المُتَحَدِّث في المنبر، وهو يذكر أَنَّ طَلَبَة حزبه الشيوعي، وحلفاءهم عقدوا مؤتمرهم بحضور الحزب الشيوعي الصيني، ووفداً لفيدل كاستروا، والبعث العراقي، وتلا الطالب مقررات المؤتمر، همس مستر سونغ في أذني :" كَذَّاب، كَذَّاب، كضب!". أومأتُ له بالتأكيد على كذبه في المنبر، شرحَ لي أَنَّ الطالب قذف بكذبتِهِ كفكرة وقائية، حَتَّى يبعد أنظارَ السُّلطةِ، وأَنَّ المؤتمرَ لا ريب مُنْعَقِد في الأيام القادمة.

أعرفُ عن سونغ لاشي أَنَّه شيوعي، ورافض رفضاً بواح للتدينِ، مُؤَيِّد لسلطة الحزب الواحد في بلاده. حين تلا علينا النشيد: " او آي بجين تاين آن مين." أحسستُ بصدقِهِ فِي مَحبَّة مَيْدَان البوابة السماوية، وماو تسي يونج، سألتُه عن رأيه في سحق الطلاب بالميدان، فتَحَدَّثَ عن الديلاي لاما، فهمتُ أَنَّ ثمة مشتركات بين حكومتنا الدينية وحكومتهم الكافرة، سألتْهُ طالبته الأثيرة – هل أنت مؤمن؟

ابتسمَ – لو أَنَّ الله يرسل رُسل، الصين بها أكثر من مليار، ألا تستحق؟

هكذا نسألُه عن مذاق الكلاب، وممارسة الجنس بطاوية، والإبر الصينية. فيسألنا عن الهبوب، وقعود العمال في البينشات بلا عمل.

في أحد صباحات سبتمبر من العام 1995. دخلتُ الجامعة، على البوابة قرأتُ بياناً يدين اعتقال عدد من الطلاب مجتمعين في ضاحية ببحري، تذكرتُ ما قاله مستر سونغ، لم يعقد الشيوعيون اجتماعهم، ولم تأتِ وفودٌ مِنْ أي جهة. بطرائقها الخاصة عرفتْ أجهزة السُلطة، تَرَبَّصتْ بالاجتماع واعتقلتْ المشاركين، تَلَبَّدَتْ الأجواء بِنُذُرِ الخروج إلى الشارع رُبّما انتفاضة صغيرة كفاية علينا، حَدَثَ اعتصام عن الدراسة، تعايش سونغ مع هذه اللحظات العصيبة، وإنْ بَدَاَ عليه استشعار خطر قادم، ذاك الصباح لم يهتم بمائه المغلي، وشرب زجاجة كولا كاملة.

رجعتُ معه، أَخَذْنا طريق مشترك، فمسكنه يجاور داخليتنا؛ ما كِدْتُ أخلعُ ملابسي حتى سمعتُ هديرَ الطلابِ في الشارع، سيارات الأمن والشرطة تهز بناياتنا، سَمِعْتُ إطلاق نار، أعرفُ الذخيرة الحية تماماً. خرجنا قرابة المائة طالب، وجدْنَا أحدَهم مُضَرّجاً في دمائه، حاولنا حمله إلى الغرف، وإبعاده عن الممر، كانت الحياة قد فارقتْه، لتفريقنا عن جثمانه أطلقتْ قوات الأمن والشغب النار في الهواء وعلى الأشجار؛ افترقنا وغَلَّقْنا علينا الأبواب، بينما تساقط ورق الشجر على الجثمان والدماء. حملوه وهم يهتفون بالنصر، وقفنا نبكي خلف الأبواب والنوافذ المغلقة.

بعد انسحابهم وقفنا حيثُ الدماء بدأتْ تتخثرُ، نبكي ونهتف موتورين. جاء سونغ لاشي واضعاً كَوْمَة مِنْ الأقطان على أذنيه مذهولاً يبحلقُ في الدم، عيناه كالبِلِي فِي صَحْن الصيني، تجولان كيفما كان، وترمشان بكثافة. لم نعدْ نعبأ بالاعتقال أو الموت، البعض يقول إنَّ القتيل طالب، والآخرون يُصَرِّحون بأنه شاب مشترك في حوض السباحة، ومَهْمَا يكن فقد بكيناه بِحُرْقَة، وحين عادوا لاعتقالنا لم نقاوم، جرّونا إلى سياراتهم، ونحن كماعز مستسلمة. أبصرتُ مستر سونغ لاشي فاغراً فمه الصيني غير العظيم، بَدَا لي كبيراً أكثر من المُتَاح، يَعْلُوه حزن مشوب بدهشة. عند ركوبي السيارة لَوَّحَ لي بيده اليمنى مُوَدِّعَاً، وباليسرى أَشَار لِجهة الشرق؛ فَهِمْتُ أَنَّه قَرَّر العودة، وآثر ميدان البوابة السماوية، لَوَّحْتُ له بيديّ، وهامتي مُنَكَّسَة بالبندقية.

الصينيون عادوا كالنمل، يدفنون أنابيب النفط، ويعتلون أبراج الكهرباء. اختفتْ بائعاتُ الفكس الجائلات، وامتلأتْ الميناءُ بحاملات النفط. قُلْتُ لرفيقي في السجن " الآن تطلبون فصل الدين عن الدولة؛ وسيأتي وقت تطالبون بفصل الصين عن الدولة" وبالرغم مِنْ الظَّلام لَمَحْتُ أسنانَهُ تَلْمَعُ فِي ابتسامةٍ عريضةٍ وآمنةٍ.

الظِلُّ و اِقْتِسَامُ الجَسَدِ

حين افترقنا اتّحدَ ظِلَّانَا، منحتُك ظلي للأبد، فوهبتِني فنتازيا الرعشة، والصَّدْعَ الكونِيّ العظيم، ظِلَّانا فِي الظهيرة مختفيان، وفي المساءِ راقصان.

لا يُهِمُّنِي البتة أَنْ يدخلَ التَّمَرُّد الكرمك وقيسان أو أَلَّا يدخل، وأَيْنَ مِنِّي تلك البقاع القصية؟ ما يُهِمُّنِي أَلَّا تغلق السُّلطاتُ الجامعةَ تحت أي ظَرْفٍ. لا أَرِيدُ العودةَ إلى مدينتي هكذا، جئتُ قَبْلَ أُسبوع؛ وانفجرتْ قنبلتي الموقوتة مع وليد كالعادة آه، وليد منحني معنى الغفران، وأَنْ أكونَ أُنثي مِنْ جديد، كُلَّمَا اِتَّسَعَ فَتْقِي؛ رَتَقَهُ بِحُبِّهِ الخَالِص، أَعَادَني زاهيةً للحياةِ ، يَمْلَأُنِي حُبُّه؛ ولا يَسُدُّ جوعي ونَزَقِي إلى الماضي المتعفن.

أَخْبَرَنِي أَنَّ الجامعةَ سَتُوَاجَه بقضايا كثيرة، عَسْكَرَة الطلاب وحَمْلهم نحو محرقة الحرب، مناهضة خصخصة القبول بالجامعة، أخبرني أشياء كثيرة، وأنا ساهمةٌ أَشْتَمَّ مِنْ جسدي فَوْحَ رائحةِ هرمون الخيانة، أُفَكِّرُ فِي جسدي غير المُحَرَّر، في كَذِبِي عليه رغم حُبِّهِ الجنونيّ لي. سهلاً عليه أَنْ يكتشفَ خطيئتي فَوْرَ عَوْدَتِي من أهلي؛ أعودُ مُحَمَّلةً بالأوزار، تهربُ عيناي عنه، وتَيْبَسُ الكلماتُ في حَلْقِي، عيناي تسحان، ويداي ترتجفان. أعودُ إليه كَجِزْعِ شَجَرَةٍ يابسةٍ تبحثُ عن فَأْسٍ يحتطبُها، ويد تُلْقِي بها في أُتون حريقٍ هائلٍ.

ما أصعب أن يتخطي خيباته المتكررة! وكبرياءه المتحطم بمعول ذكرياتي، تدمعُ عيناه ولا ليل يضمه بدفئه، تَهْجَسُ به الوسَاوِس؛ ثُمَّ يَسْأَلُنِي – عملتيها مرة أخرى .. عملتيها؟

قَبْلَ أَنْ أُؤمِئَ له كعادتي، وانخرط في استمطار دموعي، أخذ هذه المرة سيجارته؛ وأحرق بها ساعده. انطفأتِ السيجارةُ ، وأنا أسمعُ صوت لَحْمِهِ يشوى .. آه ... آه من ناري لو أَنَّه يجعل من قلبي مِنْفَضَة، ولا يحرقُ يَدَهُ بسببِ انكساراتي المعادة! حَمَلْتُ السيجارةَ مِنْ يَدِهِ وأنا أصيح – لا .. لا يا حبيبي. نَكَّسَ رَأْسَهُ وقال – خليني أشعر بالحريق.

أذكر انه حينما تحرّش بيّ بعض الطلاب ذوي الاتجاهات المريبة، وقذفوني بالسباب و ألفاظ التحرّش السياسي، أخبرتُه وأَنَا أسكبُ دمعي القريب؛ ذهبَ إليهم مُهَدِّداً، وعَادَ ساهِمَاً؛ نَظَرَ فِي عَيْنَيّ، وقال:

– كيف تنظرُ لِعَيْنَي أُنْثَى؛ أنت لا تستطيعُ حمايتها.

قُلْت – يا سلام! مَنْ القائل؟

– لا أعرف، المهم كلام وأعجبني.

لا أحد يحميني في هذا العالم، لا أحد يُنْجِيني مِنْ الغَرَقِ. لولاه لكُنْتُ الآن زَوْجةً عرفية لأحد أصحاب البوتيكات بسعد قشرة نظير كِسْوَتِي، أو عشيقةً لأحد عمال الكافتيريا مقابل العصير والساندوتشات؛ هو حِصْنِي الأمين، وصدري الحنين.

جِئْتُ إلى هنا من طبقة تحت المِقْصَلَة، صهرها الفقرُ. عرفتُ معه الحب

والأمان، ولم أعرفْ كيف أتخطى ذاك الرجل – لن أُسَمِّيه – الذي قَسَمَنِي نصفين ذات أجل، وقَاَسَم محبوبي فَتَاتَهُ، أريدُ أَنْ أكونَ خالصة له، وما مِنْ حَلٍّ قلتْ له – آه .. فعلها بي مَرَّة أُخْرَى.

– وأنت

– .....

– أشعر أَنَّ مصراني انفجر.. بطني آه تؤلمني.

لم أستطع الهروب إلى الحُبِّ، يُسَاكِنُنِي الماضي ذات المدينة، في أحايين كثيرة ذات السرير. كُلَّمَا هربْتُ إلى حُبِّي أعادَنِي بِوَسْوَسَاتِهِ، لا أَعْرِفُ إِنْ كنتُ ضعيفة، أَمْ هو الحُبُّ أقل قدرةَ مِنْ تحريري. وليد لا يشكُّ في حبي له، ولهذا لن يتركَنِي والِغَةً في الخطيئةِ، هو يحبني مثل قضاياه، الوطن، والحركة. صحيح أَنَّنِي قصمْتُ ظهرَهُ لِمَرَّات؛ السلطة فعلت ذلك، والمعارضة أيضاً، فلماذا يتعاطاهم جميعاً ويتركني أنا فقط؟

حملَ وليد أحزانه، ومصرانه المُهْتَاج، ذهب إلى مجمع التربية، وقَرَّرَ أَنْ يخوضَ معاركه من هناك. عَلِمْتُ مِنْ أصدقائنا أَنَّ بطنه توشك على الانفجار. يحملونه كل ليلة للعيادة، في الصباح يربط بطنه بقطعة قماش، ويخطبُ فِي زملائه قلتُ: واشريري عليك" . تذهبُ بقلبِكَ المُحَطَّم، وكِبْرِيَائك الجريح لتبحثَ عَنْ وَطَنَ فِي رِكْاَمِ الحَرْبِ والحبِّ.

حَدَثَ ما أخشاهُ؛ أعلنَ المذياع إغلاق الجامعة، الرجل ذي الصوت الأَجَشِّ تجشأُ الخبرَ. علينا إخلاء مساكننا، والعودة إلى مدينتي أنظرُ إلى الماضي أمامي، وأتركُ المستقبلَ خلفَ ظهري. سأعودُ عالقةً في وليد، والغةً في الماضي. لم يغفرْ لي بعد؛ وسيعودُ بآلامه وظهره المقصوم. تَمَنَّيْتُ أنْ يجمعني به مترٌ واحدٌ مِنْ هذه المليون ميل، مترٌ واحد لأبكي في حضرته؛ أَسْتَعْفِيهِ بِكُلِّ اللغاتِ، وأَتَسَوَّلَهُ فرصةً أخيرة. بحثتُ عنه في الأطراف النائية، أخفتْهُ التخومُ فِي أَزِقَّتِهَا، والآن لا مناص من عودتي لأُحَطِّمَ سياجي، وأَبْتَعِدُ عن كوابيسي.

حين عدتُ؛ وجدتُ أبي يحتضرُ. ماتَ في اليوم التالي والأناشيد الحماسية تملأُ المذياع، دفنه الرِّجَالُ كالعادة وعادوا بالعنقريب. بَكَيْتُ بِحُرْقَة جارحة، بَكَيْتُ كُلَّ شَيء، أبي، وذاتي ووليد، بَكَيْتُ المَوْتَى على الحدود، والنازحين في المعسكرات، بَكَيْتُ ضعفي وهواني على الحُبِّ. ودَدْتُ لو أري وليد وسط المعزيين، يداه مبسوطتان بالفاتحة، قلبه مُنْشَرِحٌ لي.

أغلقتْ الجامعةُ أبوابها عاماً كاملاً، عام كامل وهو يراودني عَنْ جَسَدِي ، وأنا فِي شَرْنَقَة حزني. وأخيراً حسمت الشيزوفرينيا، وصَلَبْتُ المَاضِي عَلَى قَارِعَةٍ مَهْجُورةٍ، وقفتُ منتظرة مذيعاً ذي صوت جميل يُعْلِنُ عَوْدَةَ الحياةِ إلى بَدَنِي، منتظرة عودتي إليه لأخبره أَنَّنِي نَجَحْتُ؛ ولَنَسْتَمر يا حبيبي؛ وسننجحُ هُنَا وهُنَاك.

العَجَكُو مَرَّةً أُخْرَى

بعد كُلّ هذه التجاعيد، والابتسامة اللاصقة بالخدين، ها قد استلم صالح خطابَ نزولِهِ المعاش، والحَيْرَة تنخرُ دماغه كسوسة نشطة. تساءلَ ماذا يفعل الآن لم يَعُدْ له أحد، ولا دَوْر في بلادِهِ الكبيرة. سعيد فِي أمريكا مع زوجته الإسكندفانية، وهِمَّت فِي فرنسا لاجيء سياسي. تَمَنَّى لو أَنَّ له بنت تسكن صاي أو صواردة؛ إذنْ لأَخَذَتْ مَا تَبَقَّى مِنْ جَسَدِهِ، وعُمْرِهِ وأَجْلَسَتْهُ تحت نخله مُعَمِّرَة.

في الثامنة عشر من عمره، جاء مِنْ احدي جُذُر السَكّوت النائية، التحقَ بالعملِ في الجامعة قبل الاستقلال ببضع سنوات. يصدحُ بأغنياتهِ، مُوَزِّعاً ابتسامة شهية كبلح بِتمودة، يجزمُ للطلاب بأن النبي موسى من أرض النوبة، فإذا أكثروا مِنْ دَعَابَتِهِ قَالَ – وهاجر مِنْ عِنْدِينا!

ينثرُ الصحون فِي صُفْرَة الطَّعَامِ، مَعَ أُغْنَيَاتِهِ الطَرُوبة، بعد عام واحد تزوج مِنْ فِرْيَال بنت خالِهِ، جَاَء بها مِنْ أسوان، عَبَر القِطَار في رِحْلَة خَلُدَتْ فِي ذاكرتِهِ، أنجبتْ لَهُمَا سعيد، وتُوفِّيَتْ فِي مُعَالَجَة إنجابِ هِمَّت. كرَّسَ حياتَهُ لهما يتنقل بهما في أطراف الخرطوم بفرحٍ وهِمَّةٍ.

وقف فِي الحافلة المُتَّجِهة إلى بحري، شَمَّاعة للذكريات المُعَلَّقة، تَحَسس خطابَ المَعاش في جيبه، أَحْنَى ظهرَه الذي عبرتْ عليه كُلُّ الحكوماتِ حلقة واحدة، في طرفها الأزهري والصادق المهدي ، والطرف الأخر يبدأ بعبود وينتهي بالبشير. ضَحِكَ حين تذكَّرَ تقرير مصير السودان عن مصر خلال الاستقلال،

ذاك اليوم أحس أنه لن يكون الأخير، فلا زال أخوال أبنائه في أسوان. في حكومة عبود تَوَسَعَ البركس، وتَحَوَّل البار الرئاسي إلى داخلية، ظَلَّ الأكل نظيفاً ومجانياً. حدوثُ الثورة بعد مقتل القرشي؛ فاجأه، هؤلاء الرؤساء ليسوا بِمَأْمَنٍ أبداً. ذاك الطالب الضحوك تَعَوَّدَ أَنْ يشربَ القهوة معه، ويمازِحُه فِي الصباح الآن نائب رئيس! هؤلاء الذين يديرون البلد الآن لا أحد يذكره، مُجَرَّد وريقة كتبها مُوَظَّف مغمور أنهتْ حياته.

قرار إلغاء وظائف الطبَّاخين والصفرجية جاء مع قرار حكومي برفع اليد عن السكن والإعاشة، أَحَسَّ بالخطر؛ فانضمَّ إلى رافعي المذكرات، قدَّم الوعود بتأييد النافذين في نقابة العمال، فَطُوِيتْ القضية بأنْ تمَّ تحويلهم إلى سُعَاة وفَرَّاشين على أَنْ يلتحقوا بالتدريب العسكري. هذه المرحلة التي يحاولُ سعيد طمر ذكرياتها، والقفز عليها كلما ارتبطتْ بشيء. في الجامعة توطَدَّتْ علاقته بالطلاب، يقتسمُ معهم النِّكَات مِنْ السُّرَة إلى أسفلها، السيجارة مِنْ أَوَّلِهَا إلى عقبها، يَسِرُّون له بشجارات الحُبِّ وأوجاعه، أو مطاردة السلطة وسُعْرِهَا. يجلس علي البينش، يُوَزِّعُ ابتسامتَهُ، وأنفاسَ سيجارتِهِ، ولأسبابٍ كثيرة يَعْرِفُ صالح بعضها، ويَجْهَلُ غالبيتها، يدعوه الطلابُ والطالباتُ لافتتاح أسابيعهم الثقافية، ومعارضهم التشكيلية. يأخذُ المِقَصَّ وبِحِنْكَة يَقُصُّ الشريط، يتجوَّلُ فِي المَعْرِضِ، وقد يختار أكثر اللوحات غموضاً ليتأملها من بعد مترين. الشَّبَابُ عادَةً لا يُحِبُّون المسئولين الكبار؛ هكذا فَسَرَّ الأمرَ لنفسِهِ؛ تعجبهم بساطته وانفتاح روحه للناس

والحياة. في كل تخريج يرتدي روباً ويكون نَجْم الحفل، آلاف الطلابِ أخذوا صورَهُمْ التَّذكارية إلى جواره، وبعثوا له بالهدايا مِنْ مَهَاجِرِهِمْ.

نَزَلَ مِنْ الحَافِلَة لا يسمعُ سوى طرقاتِ حذائه على الأرض، المركوبُ الفاشرِيّ سيرتاحُ، يرتدي سفنجة لتنتهي حياته بين السرير والحمام. انبطحَ على السرير بكامل هيأته، تَتَخَطَّفه الذكريات، أَحَسَّ بفوضى فِي عقله اختلط نظام تصريف الذكريات مَعَ بِرَكِ الواقعِ الآسنة. أغمضَ عينيه في محاولة لترتيب الرأس، لحيتُهُ الحليقة بدأتْ تأكل فَكيّه، حَكَّها مُغْمَض العينين، وفَرَجَ شفتيه بابتسامه فيها إطناب غير مألوف.

تَعَوَّدَ أَنْ يجلسَ تحت النيمة على كرسي البلاستيك، يتفحصُ الشارع والعابرين، كل يوم تَأْتِي مجموعةٌ مِنْ الصَبِيَّاتِ، بائعاتُ أم جنقر والباكمبا، يضعن أوعيتهن ويشربن مِنْ مزيرته _ سلام يا حاج.

ينظرُ إلى عيونهن؛ ثُمَّ يَرُدُّ – أزيكن يا بناتي.

يَبْدَأْنَ الغناءَ والرَّقص قُرْبَ المزيرة، يَتَحَلَّقْنَ للغناء العجكو .. العكجو! لا يَأْبَهْنَ لِسَحَابة الغبار تعلو الرؤوس، يرفعن صدورهن فِي إباءٍ، يباسِمْنَه مِنْ بعيد وهو جالس كإبريق في مرحاضٍ عَرَتْهُ الشَّمسُ. أَوَّل أَيَّام مشاهدَتِهِ للرقص رجع بذكرياتهِ للعام 1968، كان الطلابُ القُدَامى يُنَظِّمُون أسبوعاً ثقافياً احتفاءً بالجددِ، ذَهَبَ لِقَاعة الإكزام هول لمشاهدة المسرح، ومع بداية الغناء والرقص بدأ الإعجاب. الطالبة الحلفاوية التِي يعرفها تؤدِّي الرقصة الكردفانية ببراعة، سَعِدَ

بها أثناء البروفات، وهنا سيسعد أكثر ولكن فجأة قفز فتي نحيف يصيح في الراقصين، تطايرت الكراسي أبابيل، أظلمتِ القاعةُ، دَهَسَ النَّاسُ بعضهم البعض. عنفٌ لا نظير له انتهي بمقتل طالب. ذهبَ صالح لعزائه يُفَكِّر فيما حدث، دون أَنْ يلتقطَ إجابة.

بَدَأَ يَحِسُّ أَنْ جلوسه تحت النيمة، ورؤية الفتيات ينهبن الأرض بأقدامهن، تبعد جلبابه عن بطنه الضامرة، وتملأُ عَصَاهُ بالشغف، اعتبرها فيما مضى شهيدة الأيام والصبر، وتَوَقَّع أَنْ تنتاشها القسطرة بعد سنة مِنْ نزوله للمعاشِ. الفتاةُ المُمْتَلِئَة تَهُزُّ ردفيها وترشقه بابتسامة. دَهَمَتْهُ في أحلامه ذات ليلةٍ، اختلط الخيالُ بالواقع وتشابهت الأحلامُ؛ نهضَ يصيحُ وجدتُها، وجدتُها! جَلَسَ فِي كرسيه يمضغُ الحُنْبُك المُتَسَاقِط مِنْ النيمة. الفتياتُ شَرِبْنَ المَاءَ صَفْوَاً، غَنَّيْنَ العكجو.. العكجو فَرَحَاً، أَقدامهن تبحرُ عميقاً في قلب صالح. في أثناء مغادرتهن لسوق التَّامَا، عبرتْ بالمشهد بخيتة الفراشة بالجامعة، ألقتْ سلامَ الصَّبَاح في وجه المعاشِي، مازحتْ الفتيات، وأصلحتْ ثوبها ثم قالت:

– كيف يا صالح؟

– تمام كيف الجامعة، والشغل معاكم؟

– أهو الحال ماشي!.

بخيتة مِنْ قبيلة التَّامَا، تسكن شرق السوق، وحيدة مثله تماماً، زوجها توفي بليبيا، أبناؤها وبناتها تفرقوا أيدي زيجات. رآها عديد المرات وهي تُنَظِّفُ المكاتبَ،

تحملُ سيرك التعليمات المكتبية من هنا وهناك، وشَرِبَ مِنْ يديها الشَّاي المعطر بِالشِّيح، تَسَاءَل أيكتملُ المَشْهَدُ بِها أم بدونها؟

ليستْ صُدْفَة أَنْ تَعْبُرَ مِنْ هُنَا هذا الصباح لطالما مازحها بالزواج وتَبَسَّمَتْ فِي وَجْهِهِ. عَدَّل مِنْ جلستِهِ؛ وأَخْرَجَ كَوْمَةَ الجُلْبَاب مِنْ بَيْنَ إليتيهِ. كانت قد اعتلتْ سيارةَ التَّرحيل وغادرته بعيداً، لم يُفَكِّرْ كثيراً، الحياةُ تُمْسِكُ به مَرَّة أُخرى تجرفه عميقاً لداخلها. لَوَّح بيده للفتيات، حَمَل الكرسي للداخل، أغلق الباب، وركب أَوَّل حافلة ذاهبة للخرطوم، قاعداً هذه المرة جوار النافذةِ يشفطُ الهواءَ بِنَهَمٍ.

عَرِفَ أَنَّها فِي مثل هذا الوقت تكون فِي مكتب العميد، جاثية على ركبتيها تُنَظِّفُ وتَمَسحُ الأرض، فوجئتْ به ينتصبُ أمامها كَلَوْحَة مُكْتَمِلة الابتسامة، التفتتْ نحوه مندهشة، سَأَلَها كَأَنَّها على مَوْعِد – تتزوجيني يا بخيتة؟

نهضتُ واقفة بِوَجَل، وسقطتْ قطعةُ القِمَاش مِنْ يَدَيها، خَرَجَا مِنْ المَكْتَب بَعْد أَنْ تَرَكَا أَنفاسَ حُبِّهُمَا تَشْعِلُ جدرانَه الكئيبة. نَظَرَ فِي عينيها، وبَدَأَ يَتَخَيَّل وَقْعَ الخَبَرِ على الناس جميعاً! كيف سيحتفلُ الطلابُ بزواجِهِ؟ الآن يُمْكِنُهُ أَنْ يَمُرَّ مِنْ هُنَا كُلّ يَوْمٍ لِيَأْخُذَ زَوْجَتَهُ للبيتِ. الصَّبِيَّاتُ بائعاتُ أم جنقر والباكمبا سيكُنّ أَوَّل المَدْعُوات، وسَيُغَنِّي ويرقصُ معهن العكجو مَرَّة أُخرى.

أهذه صورتك؟ لا تمنحُ البروفايل سوى مزيداً منَ البؤس. تُغيِّبُ صورتك الحقيقية منَ الذاكرة، أين ذاك البريق في عينيك؟! كيف يا ذات النونات امتلأتْ أشداقك شحماً واختفتْ وجنتيك، يا كم أرِقتْ زهوي عند قدميك! أنا لا أعاتبك يا نوراء، كيف وقد انصرمت الأعوام على حُبِّنا؟! خمسة عشر عاماً، خالطتْ فمي ومسام جلدي، أوسعتْني تباريحاً، وأغرقتْني بكاء. سأحكي لك عمّا أراه الآن؛ فأنت عاجزةٌ عن شحْن أوردتي بالشبق، عاجزة عن إهدار كرامتي بنظرة من عينيك، سأملأ ساقي منْ هنا إلى السماء، وأمصُّ قهوتي كما تعلمين عن اندياح مَصّاتي، قلتُ إنّني لن أغْرقَ في مفازة مراوغاتك؛ إذن سأُفسِّرُ لك ما حدث.

كنتُ وفياً لصداقتي بتجاني الذي تسمينه آنذاك حبيباً، التقينا في همومٍ مشتركةٍ، عرّفني بك، امتحني ببروده المقتضب. صرنا نلتقي كالعادة؛ وأنت تبسمين لي ابتسامة ملئها الخفْرِ والإغواء. أعرف أنه زكي أيضاً، وهذه تأكدتُ منها حين غادر محرقتك بلطف.

نادي القصة السوداني

Sudanese Story Club